كتاب صوفي

سوانح الخواطر في كوامن السرائر

يتضمن أربعة رسائل للشيخ أبي الفتح عبد العزيزالجعفي المغربي الشاذلي عفا الله عنه

الرسالة الجعفية في الإشارات اليوسفية

كتاب الروح

كتاب الخوف: ويليه

كتاب البيت الحرام

كتاب صوفي

سوانح الخواطر في كوامن السرائر

يتضمن أربعة رسائل: للشيخ أبي الفتح
عبد العزيز الجعفي المغربي الشاذلي عفا الله
عنه

الرسالة الجعفية في الإشارات اليوسفية
كتاب الروح
كتاب الخوف ويليه:
كتاب البيت الحرام



الكتاب : سوانح الخواطر في كوامن السرائر

الكاتب : أبو الفتح الجعفي

الإيداع القانوني : 2010 MO 3005

تصميم الغلاف : أسماء لقبيبي

الإخراج : أنتيركراف 23 ممر مولاي رشيد – الرباط – الهاتف : 33 28 73 37 05

الطبع : مطبعة بني ازناسن 13، الحي الصناعي الزهراء ـ الولجة ـ سلا

الهاتف : 42/79 02 81 37 05 ـ الفاكس : 92 01 81 37 05

اهداء

ء

إلى والدي رحمهما الله تعالى

وإلى جميع الوالدين.. عرفانا للجميل

إلى من علمنا من أساتذتنا وشيوخنا الأجلاء

إلى كل من ساهم من قريب أو بعيد في خروج هذه الصحائف إلى النور

من الأهل والإخوان والأصدقاء والأحباب

إلى الواقفين على الأعتاب، يرجون رحمة ربهم

لا يتشددون ولا يغالون ولا يتنطعون

أولئك الذين شغلتهم عيوبهم عن تتبع عيوب الناس

إلى هؤلاء جميعا

أرفع هذا الكتاب

ترجمة المؤلف

الأستاذ أبو الفتح عبد العزيز الجعفي، الفقيه الأريب، والشاعر الأديب، من مواليد الرباط بالمغرب، سنة: 1958م

حصل على شهادة التعليم الثانوي في الأدب المزدوج من ثانوية: مولاي يوسف بالرباط، سنة: 1979م

تخرج من كلية أصول الدين التابعة لجامعة القرويين بتطوان، سنة: 1982م

حصل على شهادة الدراسات العليا في علوم القرآن والحديث، من دار الحديث الحسنية بالرباط، سنة: 1985م

حصل على شهادة الأهلية التربوية من كلية علوم التربية بالرباط، سنة: 1986م

أفاد من علماء عصره شمال المغرب وجنوبه، كما وسع اطلاعه في باقي المجالات الأدبية والاجتماعية

عمل أستاذا بسلك التعليم الثانوي منذ سنة: 1986م

ترأس جمعية: ميثاق الشباب للأدب والثقافة والفن بالرباط، سنة: 1987م

نشر عدة أشعار ومقالات، وقصص قصيرة في مختلف الجرائد، وطبع له أول ديوان في الشعر العمودي، تحت عنوان: أطلال، سنة: 1996م

شغل منصب رئيس تحرير في جريدة: صوت الشارع، منذ سنة: 2008 م، وكان يحرر زاوية: عصفور من الأقصى

انكب على دراسة الاسلام من أصوله منذ نعومة أظافره، وقرأ الكتب التاريخية والأدبية، فتكونت لديه أفكاره الخاصة، هذه الأفكار التي تهدف إلى تنقية الدين مما شابه من تشدد ومغالاة

كما دعا الى المحافظة على اللغة العربية، والتمسك بها، على أنها رمز وحدة الأمة الاسلامية، ولغة القرآن الكريم

تخصص في الفكر الصوفي، الذي لم يسلم هو الآخر عنده من نقد وتصحيح لبعض أفكاره، ونادى بالصوفية السنية الخالية من القداسة، والتشدد في مجاهدة النفس، مما يخرجها عن هدي سيدنا محمد ﷺ في الاعتدال وفي مبدأ وسطية الأمة في حين رد على من عدم الخير في أمة رسول الله ﷺ، ولم يقدر أولياءهم وصالحيهم

ويعتبر هذا الكتاب أول ما صدر له في هذا الموضوع، بعد ديوانه الشعري، تتبعه كتب ودواوين غيره، لا زالت مخطوطة، نرجو أن ترى النور في القريب.

تقديم

الحمد لله العلي الأعلى، وسعت رحمته جميع خلقه، نعمة منه وفضلا، بما خص هذه الأمة من رعاية لا تبلى، وبما بعث محمدا ﷺ، خير من أوحى إليهم، أنبياء ورسلا، سيد الكونين والثقلين، كان لها أهلا، خاتم الأنبياء والمرسلين، بالختمة أولى، بما أولى المسلمين من رأفة ورحمة، وبما أبلى، ﷺ، صلاة وسلاما متواليين، عدا ووصلا، وعلى آله وصحبه، كما آزروه ونصروه، وكانوا له أهلا

أما بعد: فيقول العبد الفقير إلى مولاه الغني: أبو الفتح عبد العزيز الجعفي: هذه بعض الرسائل في علم التصوف، كتبتها لبعض أصدقائنا وإخواننا في الدين، وجدوا فيها ما ظننا ألا يجدوه من علم وتذكرة

كتبناها من باب النصح للأمة، حتى نؤدي بعض ما علينا من واجب الدعوة والتبليغ فارتأينا أن نجمعها في كتاب واحد، وننشرها في الناس، حتى يعم خيرها الجميع

وقد كتبناها في أوقات متباعدة، متى سنحت الظروف وخلت المشاغل

نسأل الله تعالى أن يغفر لنا ما أخطأنا فيه، ونسأل من قرأها أن يدعو لنا ولوالدينا بالعفو والغفران

وسميتها: سوانح الخواطر في كوامن السرائر

وهي مرتبة كالتالي:

الرسالة الجعفية في الإشارات اليوسفية

كتاب الروح

كتاب الخوف

ويليه: كتاب البيت الحرام

نفعنا الله وإياكم بهذا الكتاب، وتقبله منا خالصا لوجهه الكريم

عليه توكلت وإليه أنيب

والسلام

إمضاء: المؤلف



الرسالة الجعفية في الإشارات اليوسفية



بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وءاله وصحبه

الحمد لله الذي أذن لهذه الطائفة أن تبقى إلى أن تقوم الساعة، وهداها إلى أن تتخذ الفكر عبادة وطاعة، وألهمها رشدها في كل حين وساعة، وتكفل برزقها يسوق لها البضاعة تلو البضاعة.

رفع عنها الأسباب، وعصمها من الشك والارتياب، وكشف لها الحجاب، وقال: ادخلوا علي الباب، من غير بواب ولا حجاب.

هدانا إلى حبها والسير في دربها، بعد أن كنا عنها غافلين، وعن دربها تائهين.

امتطينا ركب علماء الرسوم، فما حزنا سوى الرقوم، فلم نستطع أن نقوم، حتى أقامنا الحي القيوم.

فلما نشر علينا ريحها من خزائنه، استجبنا وصرنا من المحبين السالكين.

خليلي من نجد قفا بي على الربى   فقد هب من تلك الرسوم نسيم

وأشهد ألا إله إلا الله

اللهم إني أسألك بمكنون سر لا إله إلا الله التي تفردت بها عما سواك، وأقمتها حصنا لعبدك الذي تراه ولا يراك، من الشرك والإشراك، أن تفيض علي من مكنونها نورا ينكشف به غطائي وينجلي حجابي، وتغمرني ببركتها ما آمن به من الشيطان والنفس والهوى، وتجعل كيد من كاد لي في نحره وما نوى.

اللهم إني أسألك بحبي لذاتك العلية المنزهة عن الند والشبيه، ولملائكته السفرة الكرام البررة الذين لا يفترون عن الذكر والتأليه، ولكلامك الذي أثبته في كتبك السماوية هدى ونورا للطائفة الناجية، ولرسلك وأنبيائك الذين أصفيتهم بالوحي، وحفظتهم من الغي، وبحبي لمن تفرد بالختمة عنهم، وحظي بالشفاعة منهم، وآتيته الوسيلة والفضيلة، والدرجة الرفيعة، سيد الخلق وإمام الحق، حبيبك ونبيك محمد ﷺ.

وأسألك بحبي لأوليائك الأصفياء، ما أخفيت منهم وما أبديت، وما أمت وأحييت، أن تسلني من نفسي وتطهرني من رجسي وتعتقني من رقي وتكفيني أمر رزقي، وتدخلني في حضرة: «إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون، نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة». فصلت29 - 30، من أبديت لهم الغيوب سافرة في القلوب الساهرة، وأصفتهم في سرادق رضي الله عنهم ورضوا عنه، وسخرت لهم الأكوان، لما سخروا بتوفيقك الأبدان للواحد الديان، بحرمة لا إله إلا الله، يا الله، يا الله، يا الله، سبحانك لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، أستغفرك وأتوب إليك. وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وءاله وصحبه

وأشهد أن محمدا رسول الله.

يقول أبو الفتح الجعفي، عفا الله عنه: أما بعد، فهذه رسالة كتبتها في الإشارات، عام: ستة عشر وأربع مائة وألف الهجري، وسميتها: «الرسالة الجعفية في الإشارات اليوسفية»، لإخواني في طريق الله العاملين على معرفة الله، السالكين درب أولياء الله، ثبتهم الله على الحق، وعمر قلوبهم بالصدق،كتبتها من باب ما تستلزم الطريق من وجوب النصح بين السالكين، ونحن ننقب عن الشيخ الذي يجمع شروط المشيخة، مستندين إلى شيخنا الأكبر، صاحب الجبين

الأقمر، والوجه الأنور، القطب الرباني، والمدد الروحاني، والغوث الرحماني، صاحب الصولة والجولة، في ميادين المجاهدات، الدال على طرق وألوان المشاهدات، الأنور بنور الرحمن، الأبهر بذوق اللسان، الأطهر بصفاء الجنان، صاحب السياحات الكثيرة والكرامات الشهيرة، البحر الزاخر، والنجم الظاهر، والياقوت النادر، دفين عيذاب، ونديم الأصحاب، ومطلب الطلاب، سيدنا وإمامنا وشيخنا: أبي الحسن علي الشاذلي رحمه الله تعالى، وجزاه عنا خير الجزاء.
وأسأل الله تعالى أن يغفر لي ماأخطأت فيها، وأن يعفو عن تطفلي على علوم القوم، وما فعلته إلا تشبها بهم، وإلا فهيهات هيهات، أين هذا التلقي من ذاك الترقي، وأين هذا التراب من التبر، والثرى من الثريا.
وأسأل صحبتي تبليغ هذه الرسالة لأهلها، ولا يكون ذلك سوى إجازة، ومن بدل أو غير فإن الله حسيبه.
وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

الفصل الأول في قوله تعالى: «والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون».

قال أبو الفتح: هو الكريم ابن الكريم ابن الكريم، تولاه الكريم بمنه وكرمه، وجاءته الإشارة قبل حدوث العبارة.
فأما البشارة فهي: «يا أبت إني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر، رأيتهم لي ساجدين». يوسف40
وأما العبارة فهي: «لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون». يوسف15
البشارة رؤيا والعبارة وحي.
البشارة أولها يعقوب، والعبارة ألقاها كاشف الجيوب.
البشارة في ظلام الليل، والعبارة في ظلام البئر.
البشارة في غيابات الغيب، والعبارة «في غيابات الجب».
البشارة وهو لا يشعر، والعبارة «وهم لا يشعرون».
البشارة في الموت الأصغر، والعبارة فيما دون الموت الأكبر.
البشارة تحكي مآل كل شيء، والعبارة تحكي قدرة القدير على كل شيء.
وهذه وتلك من الذي لا يغفل ولا ينام.
يوسف، ما كنت في حاجة لكي يطمئنك بالرؤيا، ثم بالوحي لكي لا تيأس من رحمته، ولا تقنط من نصرته، ولكنه أخبرك، ثم أطلعك رحمة بك، فاعرف ما تولاك به من عطف ورفق، وانعم برضاه وقربه.
شغف القلب مني بهذه الرعاية اليوسفية، ووجدت ريح الرحمن الرحيم الغالب على أمره فيها، فزدت بها معرفة بمولاي.
إلهي، ما أرحمك بالرحماء من الرسل والأنبياء، وما أرحمك بمن أرسلوا إليهم، فلولا رحمتك بالمكلفين، ما أقمت لهم أعز خلقك لديك يؤذونهم ويكذبونهم، وأنت تبغي لهم التوبة والاهتداء.
أرسلت الملك يكتب أربع كلمات عند تمام الأربعين ليلة، في ظلمات ثلاث.
أرسلت جبريل عليه السلام إلى الرسل والأنبياء في تمام الأربعين.

كلمت الكليم وناجيته أربعين ليلة.
وفي الأربعين تهتف الملائكة وتظهر البشارات ويكتمل الرجال.
«حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة قال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه، وأصلح لي في ذريتي، إني تبت إليك وإني من المسلمين». الأحقاف14
فلا تبتئس يا ابن الكريم، وقد أخبرتك بحسن المآل بعد سوء الحال، إنما هو كوني أقلبك فيه كيف أشاء، كي أتعرف إليك فتعرفني، فإن لم تعرفني بتقلب الأكوان، فلن تعرفني بثبوت الأركان، وإنما هي الزلزلة مني، وإنما هو الصبر منك، وقبلها: لا تخف فقد أمنتك.
قال أبو الفتح: انهالت علي معاني سورة يوسف، فجر يوم الثلاثاء، بما لم يكن لي في إدراكه طاقة، فعزمت على تقييد بعضها لبعض إخواني، لا تقييد الشيخ لمريديه، بل هو تقييد المريد للمريد، استعانة على ما يريد وما يريد، فإنما الإرادة واحدة، وإنما المنال من الله الواحد الأحد، لمن يريد.

الفصل الثاني: في قوله تعال: «عسى الله أن ياتيني بهم جميعا».

قال أبو الفتح: جميعا، يعني: يوسف وأخويه الأصغر بنيامين، والأكبر رابيل.
ما بال يعقوب لم يصدق شيئا مما كذبوه، ولا زال مستيقنا من رجوع ابنه إليه؟
وجواب ذلك: ما أول به، على نبينا وعليه السلام، بشارة يوسف؛ فقد ألهمه الله تعالى تأويل الأحاديث، فعرضت عليه القصة، ولكنه لم يكن ليبوح بالغيب ويفشي سر الرب.
ما أرحمني بك يا يعقوب، تبكي حتى تبيض عيناك من البكاء، ولا تشكو بثك وحزنك سوى لي.
تربعت في مقام الصبر يا يعقوب، ووفيناك أجرك بغير حساب، فأي صبر كصبر الوالد على فلذة كبده؟
قلت: هي نسمة إبراهيمية، حين أمره بذبح ولده، فلم يقدم الولد على واهب الولد.
ما أضيع منك شيئا، فما يتأخر عني شيء ولا يفوتني شيء، ما دمت لك لا يغرنك من خذلك، ما دمت قريبا منك لا يغرنك من تولى عنك، ما دمت عنك راضيا، فلا تأبه لمن كان لك قاليا.
أنا نصيرك من يهزمك؟ أنا كافيك من يؤذيك؟ أنا مغنيك من يفقرك؟ أنا قابلك من يطردك؟ أنا معزك من يذلك؟ أنا معليك من يدنيك؟ أنا رافعك من يخفضك؟ أنا محبك من يبغضك؟ أنا مقربك من يبعدك؟ لا غضب مع رضاي، لا هلاك مع رحمتي، لا أمر مع أمري، لا وارث بعد إرثي، لا راد لقضائي وقدري.
من يأخذ يوسف مني، أم من يخفيه عني، وأنا القادر الرقيب؟ من يؤذيه وأنا حاميه؟ أم من يميته وأنا محييه؟
أحب أن أسمع بكاءك يا يعقوب، فلا تكف عن البكاء والشكوى ... بكاؤك هيج ملائكتي يا يعقوب.

الفصل الثالث: في تمثل أطوار العمر في سورة يوسف عليه السلام

قال أبو الفتح: أراه الرؤيا، وأسجد له كواكبه وشمسه وقمره، كآدم حين أسجد له ملا ئكته.

كاد له إخوته، ولولا الشيطان ما كان كيدهم، «من بعد أن نزغ الشيطان بيني وبين إخوتي «. يوسف 100
و اَدم كاد له الشيطان.
كيد إخوته أهبطه البئر، كيد الشيطان أهبطه الأرض، «قلنا اِهبطوا منها جميعا».
دخل السجن ولقي المتاعب، وراودته امرأة العزيز
السجن: الدنيا، «الدنيا سجن المؤمن».
ويوسف الصديق كان يأمر وينهى، وصاحبا السجن ناج وهالك، فتدبر رحمك الله.
قلت: ولعل من رأى في المنام أنه يعصر عنبا، وكان يريد التوبة من ذنوبه، فتأويله: بشارة من الله تعالى بالنجاة من عذاب النار، وإن كان في ضيق فرجه الله، والله أعلم.

الفصل الرابع: في قوله تعالى: «وشروه بثمن بخس، دراهم معدودة، وكانوا فيه من الزاهدين».

قال أبو الفتح: كذلك حال الرسل والأنبياء، تخفي ظواهرهم بواطنهم، ويستر مخبرهم مخفرهم، وتحتجب منهم المعاني وراء أستار المباني، فتقتحمهم العين، ولا يسعهم أحد بعين، إنما يقدرون بأبخس الأثمان، ويباعون للسوقة والأعيان.
ولو شاء لأغناهم، فما لرزقه من **نفاد**، ولو شاء أسكنهم القصور، ونمق السطور، وأزاح السور، ولكنه موه حالهم، ولبس منالهم، حتى يمتحن العباد، فكل من سكن حب المال في قلبه ابتعد عن ربه، وكل من اشتغل بالظاهر حرم بصائر السرائر.
ألا ترى إلى ما غر الله به إبليس ليخرجه من ظل رحمته إلى حرور غضبه، فقال اللعين: «أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين». الأعراف 11، فقاس المحل على المحل، وفاته أفضلية الساكن، وقارن الجسد بالجسد، وفاته أيها خلق باليد، فكان من المبلسين.
قلت: وكذلك حال أوليائه وأصفيائه، والاهم حين اصطفاهم، فلما اصطفاهم صافاهم، فلما صافاهم عافاهم، فلما عافاهم، أقامهم عرائس في كونه، يرحم بهم من يشاء من عباده.
وقد قال أسيادنا رحمهم الله تعالى ونفعنا ببركاتهم: الأولياء عرايس، ولا يرى العرايس المجرمون، وقالوا كذلك: لا يرى المحرم إلا محارمها.
قال أبو الفتح لصحبته في طريق الله، ورفقته في ركب المعرفة، وإخوته في سبيل الوصول إلى الشيخ العارف صاحب الأحوال والمعارف: يا صحابي السجن، سبحان من أخفى الحقيقة بالشريعة، وغطى الباطن بالظاهر، وأخفى الشقائق في الحدائق، فلا يصلها إلا محب وامق، أو موله عاشق.
علمت أن الأحرار استقلوا بالأسرار، وطاروا على جناح الاستغفار عند الأسحار، في ملكوت الواحد القهار، فأبصروا وجودا ماله ثان،
قال أبو الفتح: ثمن الكريم في الأرض بخس، وعند الله ماله ثمن، ما ضر يوسف خامل الذكر عند أهل الدنيا، وجيها عند أهل العليا، في الأرض مغمور وفي السماء مشهور.
وكذلك حال الصديقين والأولياء، ألا ترى إلى الخضر مع موسى، فالأول عبد من عباد الله الصالحين، وهو عند الشيخ

القطب، محيي الدين ابن عربي رحمه الله تعالى، من الأنبياء والمرسلين، والثاني من المكلمين، ومع ذلك استطعما أهلها فلم يضيفوهما، فانظر إلى القرني وخفائه، وإلى ابن أدهم واختفائه وفراره من الناس كما يفر الصحيح من المجذوم.
سبحان الله، شروه بثمن بخس، وهو الكريم، وسوف يشرونه البضاعة المزجاة بأفضل الأثمان، بقدرة الغالب الرحمن.

الفصل الخامس: في قوله تعالى :«وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا».

قال أبو الفتح: شاء الغالب أن يرفع الطالب، من غيابات البئر إلى نعيم القصر، فجعل العزيز العزيز من نصيب العزيز، وأجرى وصيته على لسانه، فقال: أكرمي مثواه، وما أكرم سوى الكريم، فأرجعه إلى الكرم بعد السأم، وأعزه وكلأه برحمته بعد السقم.
قلت: هذا من باب تسخير الخلق للخلق، وهو أمر معروف عند أرباب الذوق، فإن الباري عز وجل لا يزال يقلب أولياءه حيث شاء، متى شاء، بما شاء، كلما شاء، حتى يمحق اختيارهم اختياره، ويمحو تدبيرهم تدبيره، ويثبت رضاهم بقضائه وقدره، فإذا حلا في قلوبهم ما أجرى عليهم من مقاديره، واستأنسوا بتصاريفه وتدابيره، وأصبحوا كهفيين، يقلبهم ذات اليمين وذات الشمال، وكلبهم باسط ذراعيه بالوصيد، بعثهم كما بعثهم من نومهم الطويل، وقلت: بعثهم، لأنه تعالى قال: «الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها، فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى». الزمر39
من أين بعثهم، وإلى أين؟
بعثهم من الجسم إلى الروح، ومن الأرض إلى السماء، ومن الظلمة إلى النور، ومن الشهادة إلى الغيب، ومن الملك إلى الملكوت، ومن المريدية إلى المرادية، ومن الظاهر إلى الباطن، ومن: كيف؟ إلى: لا تسل، ومن الناسوت إلى اللاهوت، ومن الموسوية إلى الخضرية، ومنهم إليه.
فأصبحوا منه به له، وفنوا به عنهم فيه، فكانوا هم السعداء عن كثب وغيرهم هم الأشقياء عن جنب.
لكن يوسف، وإن كان قد نجا من البئر، فما نجا من الأسر، وإن أفلت من الرق، فلا زال لم يحظ بالعتق؛ بيد أن العزيز، وافهمه كما شئت، قال: «أكرمي مثواه».

الفصل السادس: في قوله تعالى: «وراودته التي هو في بيتها عن نفسه وغلقت الأبواب وقالت هيت لك، قال معاذ الله، إنه ربي أحسن مثواي».

قال أبو الفتح: ابتلاه بغدر الإخوة، وابتلاه بخوف الهلاك في قعر البئر، وابتلاه بالرق؛ فآن أوان البلاء الأكبر، والسحر الأحمر في المسك الأذفر، واللهيب الأصفر في الجنان الأخضر، والموت الزؤام في أرشق قوام، والقبح الأخرق في الحسن الأزهر، وبشاعة المخفر في حسن المنظر، وانقشع ظلام الدهليز على امرأة العزيز، فقال: «معاذ الله، إنه ربي

أحسن مثواي»، قال أصحاب الظاهر: راعى الكريم حرمة من رباه، وأحسن إقامته وقراه، وقلنا: لو قال: إني أخاف الله، لكان أحسن، إذ في تمنعه هذا، تصريح بميل النفس إلى ما دعيت إليه، فلو حمل معنى ربي على الله تعالى، لصح له قوله قبلها: «معاذ الله »، ولكنه حمله على سيده العزيز، فتبين من مفهوم الإشارة أن المانع من الزنى إكرام الرجل الذي أكرمه، وإخلاصه له، لا إكراما لوجه الله تعالى وحده، فماذا لو كانت المراودة امرأة غير امرأة سيده، ممن لم يسبق عليه كرمه؟ بل ماذا لو كانت زوجة عدوه الذي أساء إليه؟ بل ماذا لو كانت بكرا أو ثيبا؟ لهذا، لما تعلق امتناعه بالعبيد أوكله إليهم، فلم يكافئه العزيز على صون عرضه سوى بالسجن.

لم يقل يوسف عليه السلام: لا تقوين على إغوائي، ولم يقل :لم تروقيني، ولم تستهويني، حتى لا يسيء الأدب مع الله، فقد قال في موطن آخر: «وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن وأكن من الجاهلين». يوسف33، فأوكل الأمر إلى الله تعالى، فصرف عنه كيدهن.

و»هيت لك»، معناها فيما تقدم عليها من كلام، ابتداء من قوله تعالى: «وراودته»، إلى قوله تعالى: «الأبواب»، ومقتضى هذا المعنى: الدعوة إلى الفاحشة.

قال أبو الفتح: لما أوكل أمر صرف الكيد إلى الله صرفه عنه، ولما راعى في امتناعه حرمة السيد دخل السجن، فتدبر. والسجن بلاؤه الخامس، ولعله أهون مما سبقه، فإن الإغواء يضر الروح ويطفئ النور، أما السجن، فلا يضر سوى الهيكل، وشتان بين هذا وذاك.

الفصل السابع: في قول أبي الفتح: احتار العلماء، وهم يقرؤون أحسن القصص، في معرفة متى كان يوسف نبيا، ومتى لم يكن.

قلت: لم يصبح نبيا إلا في السجن، لأنه لا يعقل أن يكون قد بلغ الأربعين قبل دخوله، ولم يوح إلى نبي قبل سن الأربعين، فما ثبت أنه عليه السلام دعا إلى الله قبل دخوله السجن، لأن دعوته لصاحبي السجن كانت دعوة نبي، فقد ذكر لهما أنه ترك ملة واتبع ملة، وكلمة: «ترك»، لا تعني أنه كان على ملة المصريين، بل تعني امتنع عن الاتباع، فأوحى الله إليه بالإسلام، وهو دين آبائه وأجداده، فدعاهما إلى التوحيد، وأظهر معجزات النبوة في إخباره بالطعام وما إدخر في البيوت، وفي تاويل الأحاديث، وظني، والله أعلم، أنه ما أصبح نبيا سوى في سجنه، كما تبين ذلك مما ذكرته من قراين.

فان قيل: وما تفعل بقوله تعالى: «وأوحينا إليه لتنبئنهم»، قلت: للوحي في القرآن الكريم معان غير ما يخص النبوة والرسالة، وإلا، فما تفعلون بقوله تعالى: «وأوحينا إلى أم موسى»، ولم تكن نبية بل صديقة.

قال أبو الفتح: أما قول الباري عز وجل على لسان الذي نجا من الفتيين: «يوسف أيها الصديق أفتنا»، ولم يقل: «يوسف أيها النبي»، فتعليله من وجوه:

فإما أن يكون الناجي ناداه بالصديق، على أن الصديقية جزء من النبوة، ويجوز مناداة الشخص ببعض أوصافه. وإما أن يكون الناجي غير متبع، فلم يدعه بالنبي، ودعاه بالصديق، فما كل من دعي اتبع.

قلت: وقد يكون يوسف عليه السلام نبيا غير مأمور بالتبليغ، لأنه لم يشر إلى صفة النبوة بالمرة، فقال: «اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم»، فتدبر.

ولا أنسى أن أشير إلى شطط من فسر قوله تعالى: «ولقد همت به وهم بها»، بغير ما ذكرناه، فقد فسروا الهم بالضرب، والهم عندهم هنا ليس هو حديث النفس بإتيان الفاحشة، واستدلوا على ادعائهم هذا بقوله تعالى: «وهمت كل أمة برسولهم لياخذوه». غافر04

قلت: «هم»، من أفعال الشروع، ولا شيء غير الشروع، واستدلالهم غير وارد، لأن قوله تعالى: «لياخذوه»، هو الذي حدد الفعل المشروع فيه.

أما في هذا الموطن الذي بين أيدينا، فإن «هم»، تعني الشروع، والفعل المشروع فيه يظهر من قوله تعالى»وراودته».

وكما ذكرنا،لم يوح إلى يوسف بعد، وحديث النفس بالفاحشة ليس ذنبا، وإنما الذنب في إتيانها.

ويؤيد ما ذهبنا إليه مع الذاهبين، الغر الميامين، قوله تعالى: «وإلا تصرف عني كيدهن أصب إليهن»، وقوله تعالى: «فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن». يوسف34

فكانت العصمة من الله تعالى، أما يوسف عليه السلام، فلا حول ولا قوة له أمام الله، الذي كتبه من المخلصين، بفتح اللام، وليس بكسرها، فتدبر.

وأشير إلى ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، عن شيخنا قطب الزمان، الساطع في كل وقت وأوان، الولي الأبهر، والشيخ الأشهر، صاحب المقامات السنية، والسياحات البرية والبحرية، سيدي ومولاي أبي الحسن علي الشاذلي، برفع الدال المعجمة، وليس بكسرها كما جرى على لسان العامة، نسبة إلى شاذلة، قرية بإفريقيا، وهي تونس في هذا الوقت.

نسب شيخ الإسلام إلى شيخنا الخطأ، في قوله في حزب البحر، رحمه الله تعالى: «نسألك العصمة في الحركات والسكنات والكلمات والإرادات والخطرات».

فقال: والعصمة لا تكون سوى للأنبياء والرسل.

قلت، دفاعا عن الشيخ: العصمة، المراد بها الوقاية، قال تعالى: «ساَوي إلى جبل يعصمني من الماء».

فلا مجال للأخذ عليه فيها، والمراد بها في نسبتها إلى الأنبياء، عصمة خاصة، وإن شئت، عصمة دائمة، فلا داعي لتصيد المثالب في الكلام القويم، وعد المعايب في المنطق السليم، ولعل التسليم أولى لأهل هذه الطائفة، وإن كلامهم لا يحمل على ظاهره، إذ ما هم فيه لا تحتويه لغة، ولون خمرتهم وأديمها كل القوارير، مهما صفت، لا تنقله.

الفصل الثامن: في قوله تعالى: «نبئنا بتاويله إنا نراك من المحسنين».

قال أبو الفتح، فتح الله عليه وعلى رفقته: ما علاقة التأويل بالإحسان، حتى يستدلا بمعرفته له عليه؟ وما شاهد إحسانه حتى يشهدا له به.

التاويل علم والإحسان معرفة، وإن شئت قلت: التاويل تفسير والإحسان تيسير، وإن شئت قلت: التأويل بيان

والإحسان تبيان، وإن شئت قلت: التاويل حجة والإحسان محجة، وإن شئت قلت: التاويل نعت والإحسان سمت، وإن شئت قلت: التاويل تلميح والإحسان تصريح، وإن شئت قلت: التاويل هبة والإحسان موهبة، وإن شئت قلت: التاويل علامة والإحسان كرامة.

قلت: لما رأيا من إحسانه، طلبا منه التأويل، لأن المحسن لا يخفى عنه شيء، كيف وهو يعبد الله كأنه يراه؟

ولا يشهد ظاهر الآية على اتباع الفتيين ليوسف في دينه، وإلا لقالا: إنا نراك من النبيين، ونعتاه بالنبوة، إذ هو أحق بها من نعت الإحسان، وإنما ينصرف معنى طلبهما إلى ما يلي:

أول لنا الرؤيتين فإنا، على حسب ما شهدنا من حسن سمتك، وصدق عشرتك، وخرق عاداتك، نشهد لك بالإحسان، ونراك من ضمن المحسنين.

والإحسان مقام دونه بيد دونها بيد، فهو يأتي بعد قطع عقبة النفس واقتحامها، فلا يجد ريحه من في قلبه شهوة مهما صغرت، إذ الشهوة تعلق بالحوادث، والإحسان تعلق بالديمومة، ولا يجتمع حب الله مع حب غير الله، فما وسعه، جلت عظمته سوى قلب المومن، وهو، تعالى، لا يسكنه وفيه بقية أكدار.

إذا دخلت قلبك الدنيا، لم تعرف الآخرة إليه سبيلا، وإذا دخلته الآخرة، لم يلجه الله.

فإن قيل: فكيف نفرغ قلوبنا من غيره، ونعمرها به؟

قلت: هذا السؤال رأس الخطأ، إذ الأولى أن يقال: فكيف يفرغ قلوبنا، برفع الياء التحتية المثناة وجر الراء المهملة، وقد سبق أن عرضت لهذا الأمر في رسالة كتبتها قبل سنين، لا أعلم ما قدر الله في شأنها، ولا آسى لأمرها، فإن كان في خروجها خير لي ولغيري، أظهرها الله، وإن كان غير ذلك، فقد أحسن بي إذ حجبها عن الناس.

اللهم إن كانت نورا فأظهره، وإن كانت ظلمة فأخفها، «والله متم نوره ولو كره الكافرون». الصف08

قلت فيها في فصل: عشق الصور: إن الشهوة لا تخرج من القلب بالصيام والقيام، لأن من طبيعة القلب، أنه كلما صفا رق، وكلما رق زاد عشقه، ولكن السبيل إلى ذلك، في رفع أمرها إلى خالقها، مع التوبة والإنابة والتذلل، فإنه لا يبقيها، لقوله تعالى: «كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء، إنه من عبادنا المخاصين». يوسف24، وقوله تعالى: «ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان «. الحجرات07

قال أبو الفتح: يا زيد، ملأت معدتك بالطعام، وأغرقت جفنيك في المنام، وتطمع في بلوغ مراتب الأقوام.

ويحك، قاموا لياليهم يناجون مواليهم، وما قمت، أسهروا جفونهم يشكون شجونهم، وأغمضت.

صدقوا وكذبت، أخلصوا وراءيت، ذكروا وغفلت، تهجدوا وهجعت، قللوا وأكثرت، خففوا وأثقلت، ولما أثقلوا خففت، فنجحوا وأخفقت.

إخواني، لم يستقم لي لفظ في جملة كتبتها بعد هذا الكلام، فألغيتها من رسالتي، وفهمت ما يراد بي في ذلك، وأعود لأقول بلسان الرحمة، ومنطق الحكمة: فاجتهد يا أخي وسعك، ولا تيأس، فبرحمته وسعك، فإن كنت ممن لم يوفقوا لكثرة النوافل، واستصعبت المسائل، فأحبهم يبعثك الله في زمرتهم، «المرء مع من أحب».

يا زيد، امسح مرآة قلبك من الدرن، تدرك الوطن.

أزل عن قلبك الران، يزره الرحمن.

ما هي إلا مسحة منك ولفتة منه، وما تلك المسحة إلا بعد تلك اللفتة.
ما هي إلا مسحة ولفتة، يتبعها الفتح، «فلما رآه مستقرا عنده قال: هذا من فضل ربي». النمل 41
اللهم لا تحرمنا من فضلك، ولا تخضعنا لعدلك، بل أفض علينا من خزائن منتك، وتولنا برحمتك، فإن ذلك يزيدنا ولا ينقصك، وينفعنا ولا يضرك، بحق حبيبك محمد ﷺ وعلى آله وصحبه.

الفصل التاسع: في قوله تعالى: «وقال الملك ايتوني به».
وقوله تعالى: «وقال الملك ايتوني به أستخلصه لنفسي».

قال أبو الفتح: عجبا لك يا صفي الله، دعاك الملك وأنت السجين المملوك، فكيف لا يجيب السجين دعاء المكين، وكيف لا يلبي المملوك دعوة الملك؟
فتحت لك أبواب السجن فلم تخرج، ومن ذا الذي يحبذ الأسر على القصر؟
دعوة الملك الأولى دعوة استخبار، ودعوته الثانية دعوة استئثار.
دعوته الأولى دعوة استئناس، والثانية استخلاص.
الأولى ابتلاء والثانية اختلاء.
لو لبى الدعوة الأولى عليه السلام، لخذله الله مرة أخرى، كما فعل معه عندما قال: «اذكرني عند ربك».
إخواني في الله، إياكم أن تتعلق قلوبكم بما في يد الغير مهما كان.
لا تتقربوا لمخلوق طمعا فيما عنده، حتى لا يخذلكم الله، ومن خذله فمن ينصره، وحتى لا يكلكم إلى الخلق، ومن أوكله إلى الخلق، فقد كبرت عليه أربعا.
ايأسوا، رحمكم الله، من الخلق، تفرحوا بالخالق الحق، لا تطمعوا في تراث الحياة الدنيا، يغنكم من خزائنه التي لا تنفد، افتقروا إليه يغنكم منه، اجأروا إليه يجركم مما أنتم فيه، استطعموه يطعمكم، استكسوه يكسكم، استهدوه يهدكم، لا تختاروا غيره يصطفيكم، وإن اصطفاكم، فأنتم السعداء سعادة لا شقاء بعدها.
إلهي، ما خاب من سألك، ولا ضام من تظلم إليك، ولا ذل من تعزز بك، ولا تاه من استظل بك.
استيقظوا عليه وقلوبكم مشدودة إليه، وأرواحكم ساجدة في محرابه، يكفكم مؤونة يومكم.
أتقنوا حرفتكم يا أولياء الله، وحافظوا على أدواتها، فأي حرفة بدون أدوات؟
أدوات العبادة يا سادة، السبحة والجلباب والسجادة، هي أسباب السعادة.
وأما أساس الأمر، فهو التوكل، فتوكلوا، بل اتكلوا عليه، ولا تنقضوا العهد حتى لا تفقدوا الود.
عجبت لمن يحيى دون هواه، كيف يبصر ويسمع ويتكلم، لا تبصروا ولا تسمعوا ولا تتكلموا سوى بحبه وهواه، يكن كل ما تفعلون عبادة وتقربا، انظروا إليه فإنه لا يخفى، انظروا إلى الأشياء وأبصروها به، ولا تبصروه بها، فهذا في القياس شنيع.
لو دعاه الملك في المرة الأولى، وفرح بدعوته له، لكان مفتقرا إليه، والولي ليس مفتقرا سوى إلى الله، لذلك لم يلب دعوته حتى ظهرت براءته، وبعد ذلك دعاه ليستخلصه لنفسه، فخرج إليه عزيزا شريفا، وقال: «اجعلني على خزائن الأرض»، وأنت أيها الولي، لا تذل نفسك لأحد، يعزك الله ويفضلك عليه، أما رزقك فهو على الله.

قال أبو الفتح: وإني لأفر من رزقي فرارا ما بعده فرار، فأغلق الأبواب وأسدل الحجاب، وأيأس من الخلق، فيصلني رزقي كاملا غير منقوص، وإذا تعلق قلبي بأحد حرمته وأذلني الله.

متى اشتد علي الأمر، دعوته ليلا وشكوت إليه ما أجد، فإذا بي أشعر وكأنني أعز الناس، ولا زلت في موضعي تلك الليلة، لم أبرحه.

ماذا تطلب أيها الولي، أم فيما ترغب، هل عدمت خبز الشعير، أم عدمت الحصير، أم عدمت جرعة ماء، هذا زاد رسولك ﷺ، فلماذا تشكو؟ أتريد أن تتنعم، أم تريد أن تتقوت؟

قال سيدي عبد القادر الجيلي رحمه الله تعالى في فتحه: المومن يتقوت والكافر يتمتع، يكفي المومن ما يكفي العنيزة: جرعة ماء وحفنة شعير. انتهى

أتريد أيها الولي أن تركب مراكب أبناء الدنيا، أم تريد أن تسكن طباقهم، أم تغوص في وحلهم؟ دعهم وما هم فيه، حتى يدعوك وما أنت فيه، فإن نافستهم تركوك سفر اليدين من رحمة الله، «ولا تمدن عينيك»، «ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما»، «أيحسبون أن ما نمدهم به من مال وبنين»، «واصبر نفسك».

انتهوا أولياء الله، انتهوا فقد كفيتم، وإن لم تنتهوا فاذنوا ببعده، ولئن أبعدكم من ذا الذي يقربكم من بعده؟

الفصل العاشر: في الصحبة وما يليها من دواعي القربة وإشارات الرغبة، وبشارات الرهبة ببلوغ الجذبة.

قال أبو الفتح: ما بيني وبينك سوى ما تراه النفس بينا، ومتى حال البين بيني وبينك، يا من أشرق بأنواره فبدا لمن عرف أنه بدا، إن قلت: رأيتك كذبت، وان قلت لم أرك، ما صدقت.

وإن قلت: رأيتك صدقت، وان قلت: لم أرك كذبت.

واعجبا، كيف يستوي الصدق والكذب؟ وكيف يلحق السفور بالحجاب.

سبحان من خلق الأسباب، وأسدل النقاب، فلا الأسباب تلحق رب الأرباب، ولا النقاب يحجب الخالق الوهاب.

فيم قولي أنا، وأنت واجب الوجود، أم فيم قولي هو، وأنا قائم موجود، وفيم قولي كلانا، وما هناك اتصال، وفيم قولي هو وأنا، وما ثم انفصال، بين الملك والملكوت، تحار العقول وتأذن الشموس بالأفول، ويقوم اللامعقول.

ورفقتي حاضرة معي، تتلقى ما أتلقى، وتكتب ما أكتب، وقد أكتب عنها ما لا أكتبه من نفسي.

يا أبا سهل، ألق الحبل على الغارب، ولا تخش العواقب، «دعوها فإنها مأمورة «، ذلول ميسورة، فما ثم مصاعب.

أتيت بالمفاخر من غور العرفان، وحزت المفاخر دون أن تفاخر وتكاثر، أيها الإنسان.

قارنت درتك درتي، فما أبهاها من درر عظيمة الخطر، تاه عنها البشر، بسطت يداك، فأوتيت هداك ممن هداك.

هارون في جواري، يرقب أقماري ويعبر بحاري.

قد أوتيت سؤلك، وإن لم تسأل، فلا تسأل.

أنا أعرف منك ما لم تعرف، وأتعرف إليك في اليوم ألف مرة، وكلما التفت إليك وجدتك ملتفتا إليه، وكلما التفت إليه وجدته ملتفتا إلينا.

هبة الله في طريق الله، في أرض الله، بالله ومن الله وإلى الله، وفي الله، وعلى الله
ما بينك وبين الجذب إلا الأكدار، حجبت عنك كثيرا من الأنوار، ولو شئت محوتها، ولو محوتها أثبتت في ديوان المكاشفين خصوصيتك.
وأسماء الله شاهدة على هذه القاعدة، والشيخ المطلوب، طالب ومطلوب، والله الغالب، وما تشاؤون إلا أن يشاء الله.
وأنت يا صاحب الإخلاص، أيقن بالخلاص، فالخلاص على وجهك بكل حروفه، ما رأيتك منذ عرفتك، إلا وقرأته فيه.
يأتيك الفتح من حيث لا تحتسب، إذ أتيتنا فتحا من حيث لا نحتسب، ما في الوجود إلا الموجود.
أوقفك على النفوس تزهق، لتعلم أنه حي لا يموت، فقل: سبحان الحي الذي لا يموت.
علم القلب، والعقل يهذي عن القلب، وما لنا بالعقل حاجة.
آه لو تعلم الروح ما يغدو في القلب ويروح، لعبر اللسان عن الأكوان، وعبرت الأبدان، وأصبح الروح والجسد سيان.
أنت أقرب مني إلى الوحدة، وإن عرفت التوحيد قبلك.
التوحيد أبعدني والوحدة حيرتك، حيرتك أحب إلي من بعدي، «أو أعبد ما لا أرى».
وأنت يا خميس، رأيتك واقفا على أرض البعث، أنت على أرض بيضاء مشدوه إلى الحق، شاخص البصر، والنفس الأمارة منك تحتضر، والأنوار تتلألأ وتزدهر.
آه لو نظرت إلى السماء، لعرفت ما أريد أن أقول، دع الثرى كي ترى، وعطل العقل كي تعقل، «وتلك الأمثال نضربها للناس، وما يعقلها إلا العالمون». العنكبوت43
أيها الشاخص الخالص، ما أقربك إلى الاستخلاص، يا إبراهيمي الوجه، «قد صدقت الرؤيا».

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

تمت الرسالة بحمد الله ومنته

ليلة الأربعاء: 05/02/ 2003



كتاب الروح



بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه

الحمد لله باري الأجساد من طين، خلقها فسواها في الحين، فكانت نفوس العالمين، وألهمها فجورها وتقواها، قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها، أورث الطين اللازب من الصلب والترائب، ذرية آدم عبر الحقائب، فأخذوا من نفوس أسلافهم ما يعرفون به الواجب من غير الواجب، وبعد أن خلق فسوى نفخ من روحه أمرا في الروع عنه نائب، فكانت الأرواح شهودا على أنفس فيما فعلت من صائب وغير صائب، توحي إليها بما رق من رغائب، وتهديها سواء السبيل، فمنها مستجيب لأمر الله راغب، ومنها ضال عن ربه خائب.

سبحانه لا يدري بخلقه سواه، لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه.

والصلاة والسلام على لسان الروح والجسد، سيدنا محمد ﷺ، من اكتمل ببعثته ما ابتدأ الواحد الأحد، منذ آدم عليه السلام، وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

أما بعد، فقد سألني بعض الإخوة عن الروح وعلاقتها بالنفس، وأيهما معني بالتكليف والحساب، فارتأيت أن أكتب هذا الكتاب، بتوفيق من رب الأرباب، أجيب فيه عما سئلت، وأشرح به ما رجوت، علي بذلك أبصر إخواني ببعض ما توارى عنهم، وأيسر بعض ما استعصى عليهم، في أمر لا مجال للعقل فيه، بل هو من أمر الله تعالى.

وقد بينا مما فتح به علينا، ما جاز لنا تبيينه، وأبنا على ما أذن لنا تلقينه، والله أسأل، أن يتجاوز عنا فيما أخطأنا، ويعفو عما هفونا ونسينا.

وسميته: كتاب الروح

ولم نقصد مما أتينا سوى تعريف الطالبين بربهم، وتقريبهم على قربهم، إلى باب المولى، حتى يعرفوه بإذنه، «إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت، وما توفيقي إلا بالله، عليه توكلت، وإليه أنيب». هود88

وقد كتبنا هذا الكتاب على عجل، ودوناه في كبد، ولولا عناية الواحد الأحد ما أتممناه، فلله الحمد من قبل ومن بعد، لا إله إلا هو.

الروح من روحه

الرب والروح، والملك، والشيطان والجن، والجسد والنفس والقرين والهوى، ثم الدنيا

فمن حيث الماهية: الرب والروح لاهوت، والملك نور، والشيطان والجن نار، والجسد والنفس والقرين والهوى حمأ مسنون، والدنيا نهمت.

«وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين». الحجر28 -29

إذا كان الله مصدر الروح، وهي منه ليست إياه، وهما واحد لا ينشطر، واثنان في وحدة، يتوحد دونها ولا تتوحد معه، فهي نفخة من روحه ينفخها الروح الأول بأمر مولاه، والروح الأول هو مصدرها، والنفخة ليست طرفا منه، وإنما هي أثره،

وهو أثر من مولاه، ولا يخلو الأثر من ريح صاحبه، وحاشا لله أن تكون الروح طرفا منه، وهو سبحانه لا يتجزأ، وإنما هي تحمل سر الألوهية، بما نفخت من روح ذات الإله، وليست إلها، وإنما هي تابعة للإله، بل هي من أمره:

«ويسألونك عن الروح، قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا». الإسراء85

قال ابن كثير: وقد اختلف المفسرون في المراد بالروح ها هنا على أقوال:

أحدها: أن المراد أرواح بني آدم، قال العوفي عن ابن عباس في قوله: "ويسألونك عن الروح الآية"، وذلك أن اليهود قالوا للنبي ﷺ: أخبرنا عن الروح، وكيف تعذب الروح التي في الجسد، وإنما الروح من الله، ولم يكن نزل عليه شيء فيه، فلم يحر إليهم شيئا، فأتاه جبريل فقال له: "قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا"، فأخبرهم النبي ﷺ بذلك، فقالوا: من جاءك بهذا؟ قال: جاءني به جبريل من عند الله، فقالوا له: والله ما قاله لك إلا عدونا، فأنزل الله: "قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه". البقرة96

وقيل: المراد بالروح ها هنا جبريل، قاله قتادة، قال: وكان ابن عباس يكتمه.

وقيل: المراد ها هنا: ملك عظيم بقدر المخلوقات كلها.انتهى من تفسير ابن كثير

قال ابن منظور: الروح بالضم، في كلام العرب: النفخ، سمي روحا لأنه ريح يخرج من الروح، ومنه قول ذي الرمة في نار اقتدحها وأمر صاحبه بالنفخ فيها، فقال:

فقلت لـه ارفعها إليـك وأحيها بروحـك واجعله لهـا قيتة قدرا

قال الأزهري عن ابن العربي: يقال: خرج روحه، والروح مذكر؛ قال أبوبكر ابن الأنباري: وتأويل الروح ما به حياة النفس. انتهى من لسان العرب

الروح ليست شيئا وليست حدثا وخلقا، وإنما هي أمر من أمور الرحمن، علمها عند ربي.

وتقتضي معرفتها معرفة بعض الألوهية، وإلا لا أحد يعلم بكل الألوهية، إذ معرفة الألوهية لا تدرك بالكلية، مادام الإله لا يحيط بمعرفته أحد.

الروح أمر غريب أيها الحبيب، غريب عن عقولنا وليس عن صاحبه، ولو كانت طرفا من الله لخاطبها الله بسبحانك، وليس بأولى لك، **وهذا لا يجوز** في حق **الواحد الأحد**.

هي قادرة وعاجزة: قادرة على ما لم يقدر عليه الجسد، مما أذن لها الله تعالى فيه بالتصرف.

عاجزة عما قدر عليه الله تعالى، لأنها ليست إياه.

راحـة روحـي فى صـوابـي ولو نخـطـا ما تخـطى بـابـي
الـروح لمـا يـلـوح بـأمـرو ريحو فى الابـدان سـرو
لما تموت النفـوس ؤ الابـدان الـروح يـرجـع لـوكـرو
مـا على الروح من حسـاب الروح مـولاهـا تـبـرو
راويـة تـروي افـعـالي نـجـحـدو أو نـشـكـرو

الروح انعكاس للألوهية بعظمتها وجمالها وجلالها في الإنسان، منها يعرف وبها يعبد، ولولاها ما صح التكليف، ولولاها ما ساغت الخلافة على الأرض.

وقد ألقاها الباري عز وجل راضية مرضية، مستقيمة قويمة، وما ضل عن مسارها سوى الجسد، وهي في الجسد، ليست كشيء في شيء، بل هي رهينة به، لكن حياتها في اللاهوت.

وأقرب ما يكون المرء إلى اللاهوت في الرؤى، أو حين ينجذب جزئيا أو كليا، إذ في النوم يتوقف العقل، وعند الانجذاب يتوقف بعضه أو كله، ويدرك ما لا يراه ويدركه وهو واع مستيقظ، بل ويتكلم بما لا يعرف، ويسمع ما لا قبل له به، يخاطب ويخاطب، فيحكي الحوار، ويظن نفسه شاهده، في حين كان أحد طرفيه.

بل إنه في هذه الحالات، قد يعلم الغيب ويتصرف بإرادة وقوة غير إنسانية، وهو في ذلك كله مسير غير مخير، لا يتحكم في شيء مما يرى ويتكلم ويسمع ويخاطب.

الروح ليست نورانية كالملك، وإنما هي وجود يدل على الواجد الذي لا موجود معه، لا تعقل بفكر، ولا ترى بعين، ولا تسمع بأذن، وإنما تدرك مع المدركات وتوجد مع الموجودات.

«ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون». يوسف94

لا يسعها مكان، ولا يحدها زمان، ومن ظن أنها تسكن الجسد فقد ضل ضلالا بعيدا، وإنما تتصرف فيه في أرض التكليف، وتتخلص منه في كون التشريف، والله عز وجل في اتصال معها آناء الليل وأطراف النهار، وهي عنه غير غافلة، بل الغفلة غفلة النفس في الجسد، بما يتهيأ للنفس من موجودات غير موجودة، ومما يعزب عنها مما هو موجود، وبما تؤمل مما لا حدوث له سوى في مخيلتها.

لا حقيقة في الكون بعد الله سوى للروح، بل هي حقيقة الله الحق التي حقق بها قاعدة هذا الكون، الذي ليس وحده في الأكوان، هذه القاعدة قائمة على العبد والمعبود، والمكلف والمكلف.

ولو لم يلق الرب الروح في الجسد، لكان الكون بسيطا منفعلا بانفعالات العناصر الأربع، انفعالا حسنا أو قبيحا بالضرورة، لا يستحق التكليف، ولا يوجب الحساب.

راحت الروح تسرح وتسيح، لا تتعب فتستريح، في ملكوت الله الفسيح، لا يدري بها صاحبها، وهو في عالم الملك يغدو ويروح، بين الحسن والقبيح، وكأنه بلا روح، لا يرتاح ولا يريح.

أنهكك الجسد أيتها الروح، بما لبس من أسمال، ومشى في الأوحال، فنسيت أنك أميرة، ما لإمرتك من زوال، وأن خيرك ما ذللت لذي العزة والجلال.

معاني الروح في القرآن الكريم:

أولها: فأما الروح بفتح الراء المهملة وجزم الواو، فمعناها الرحمة، وقد ذكرت بهذا المعنى في القرآن مرتين: «ولا تيأسوا من روح الله، إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون». يوسف87

وإن شئت قلت: هي تدارك رحمة الرحمن من درك الأحزان

ثانيها: والروح كما سبق، بفتح الراء، فمعناها السلام والطمأنينة، وقد ذكرت بهذا المعنى في القرآن مرة واحدة: «فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم». الواقعة 91 - 92

وإن شئت قلت: هي فرح القلوب بقرى علام الغيوب

ثالثها: وقد ترد بمعنى الوحي، وقد ذكرت في القرآن مرتين: «يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده لينذر يوم التلاق». غافر14

«وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان». الشورى79
وإن شئت قلت: هي كلام الباري بما هو جار
رابعها: وقد سمى الله تعالى جبريل في القرآن روح القدس، وسماه الروح الأمين، وقد ذكرت في القرآن الكريم خمس مرات: (مرتين في البقرة، ومرة في المائدة وفي النحل والشعراء)، منها:
«وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس». البقرة86
«نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين». الشعراء 193 - 194
وإن شئت قلت: هي موصوف من نور، بالوحي مأمور
خامسها: وتأتي الروح في القرآن بمعنى النصر والتأييد، وقد ذكرت في القرآن مرة واحدة: «أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه». المجادلة91
وإن شئت قلت: هي نصرة المومنين بتأييد الحق المبين
سادسها: والروح عيسى عليه السلام، وقد ذكرت في القرآن مرة واحدة:
«إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته، ألقاها إلى مريم وروح منه». النساء170
وإن شئت قلت: هي كلمة الحق ألقاها إلى مريم بالحق
سابعها: وهو الروح الذي ينفخ الله منه الأرواح، وقد ذكر في القرآن اثني عشر مرة
ونخلص إلى أن الروح سبعة:
فالأولى: روح الرحمة أن تداركت
والثانية: روح فرحة القلوب ما ائتلفت
والثالثة: روح الوحي إن نزلت
والرابعة: روح جبريل ما وصفت
والخامسة: روح النصر متى أتت
والسادسة: روح المسيح قد نطقت
والسابعة: سابع ستة دونه عنه أنثت، وهو سابعها ما به حسبت.
فالأولى: روح العناية
والثانية: روح الرعاية
والثالثة: روح الهداية
والرابعة: روح الوصاية
والخامسة: روح الحماية
والسادسة: روح من الله
والسابعة: روح الله
والسابع مدار الموضوع، وإليك بعض نعوته:

الروح قائم بأمر الباري، نفخه منه في الأرحام سار
وإن شئت قلت:
الروح بالله دون خلق، موجود يغشى الأجنة بعد الوجود، بأمر الواحد المعبود
وإن شئت قلت:
الروح واحد صدر عنه الجمع، والأرواح واحد تفرق في الروع
وإن شئت قلت:
الروح واهب بالله وهب، والأرواح موهوب، هبه نارا في حطب
وإن شئت قلت:
الروح مأمور ليس إلا، والأرواح أمر أهم حملا
وإن شئت قلت:
الروح استقلال النعوت، عن ذات اللاَهوت، إذا قامت لا تفوت
وإن شئت قلت:
الروح أرواح لا تنتهي، تنفخ منه هي
ما صدرت الأرواح عن الذات، وإنما نفخها الله تعالى عن طريق الروح، حتى لا تحمل منه ما له من صفات، فتكون هي هو: إله ولات

وقد تكرر لفظ الروح بفتح الراء المهملة ورفعها، في القرآن العظيم أربعا وعشرين مرة، معرفا ومنكرا، منسوبا إلى الله تعالى بياء النسبة، أو بنا الدالة على الجلالة، أو مضافا إليه تعالى بهاء الغائب.

أما الروح مدار كلامنا، فلا تمت إلى المعاني الستة التي سبقتها بصلة، وقد عرض للكلام عنها غيرنا ممن سبق:

قال في لسان العرب: والروح النفس، يذكر ويؤنث، والجمع الأرواح.

التهذيب: قال أبو بكر الأنباري: الروح والنفس واحد، غير أن الروح مذكر، والنفس مؤنثة عند العرب. انتهى

قال الفراء: والروح في هذا كله خلق من خلق الله، لم يعط علمه أحد. انتهى

وقوله تعالى: «يوم يقوم الروح والملائكة صفا». النبأ38، قال الزجاج: الروح خلق كالإنس، وليس هو بالإنس. وقال ابن عباس: هو ملك في السماء السابعة، وجهه على صورة الإنسان، وجسمه على صورة الملائكة. انتهى من لسان العرب

قال أبو الفتح الجعفي: قلت: وهذا الذي ذكره الأقدمون في أمر الروح فيه نظر:

فلا علاقة عندنا بين الروح والنفس في القرآن الكريم، كما سنراه فيما يأتي من كلام على النفس والجسد.

أما من قال بخلق الروح، فلم يراع، ما تظاهرت عليه آيات القرآن من أنها نفخة من روح الله، فلا مجال للقول بخلقها بعد أن نسبها الباري عز وجل إلى نفسه.

«فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين». الحجر29

وقوله تعالى: «من روحي»، لا يعني به من نفسي، بل هو منه جاء، لا ندري كيف كان ذلك، بغير خلق، سبحانه لا يعجزه شيء من خلقه في السماوات ولا في الأرض.

والروح واحد لا يتجزأ، ولم يرد الروح بصيغة الجمع في القرآن الكريم، كما هو معروف، وإن جاز لغة أن نسمي كل ما لا جسم له روحا، ومن ذلك الملائكة، بل والجن كذلك.

هذا الروح الذي ينفخ منه الله تعالى في الخلق ريحا سامية طاهرة، لا يشوبها شيء، تبقى صلة المخلوق بخالقه في الدنيا والآخرة.

ولم يورث آدم لذريته من النفخة شيئا، وإنما لكل واحد نفخته:

عن عبد الله بن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ، وهو الصادق المصدوق، قال: «إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكا، فيؤمر بأربع كلمات، ويقال له: أكتب عمله ورزقه وأجله وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح الحديث». أخرجه البخاري في كتاب: بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة

وقد جاء فعل: «ينفخ»، في الحديث الشريف مبنيا للمجهول، حتى يدل على أن النافخ ليس الملك.

ثبت النفخ في القرآن الكريم، بخلاف ما هو عليه عند آدم بعد خلقه وتسويته، وعند ذريته وهم أجنة في بطون أمهاتهم، قلت بخلاف كل ذلك، فيما حكاه الله تعالى من أمر عيسى عليه السلام.

«ومريم ابنة عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا». التحريم12

وفيه أن النفخ كان سبب تكوين الجنين وليس الأب، ولذلك سمى الله تعالى عيسى عليه السلام روحا، ولم يسم بشرا غيره بذلك.

«إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته، ألقاها إلى مريم وروح منه». النساء170

وفي تسمية عيسى عليه السلام بالروح أمور وجب ذكرها:

أولا: لا تنفخ الروح في الجنين سوى إن كان من أب وأم، كما سبق عندنا في حديث ابن مسعود، إذ يستحيل وجوده من دونهما.

ولما شاء الباري عز وجل غير ذلك، من إيجاد المسيح عليه السلام دون أب، لم يأمر بالنفخ بعد إيجاد الجنين، بل قدم النفخ عليه، فنشأ به.

ثانيا: أطلع الله تعالى مريم العذراء على روحه، حتى تعرف سبب حملها وما تحمل به، بخلاف جميع نساء العالمين، اللواتي لا تدرين بالروح متى نفخ به المولى ما نفخ.

«فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا، قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا، قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا، قالت أنى يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا». مريم 16 - 19

وفيه أن الروح مؤتمر بأمر الله، يرسله إلى من شاء، وقد يتمثل لهم ويكلمهم فيرونه ويسمعونه.

وفيه أن الروح قال: «لأهب لك غلاما»، ولا يهب الولد سوى الله تعالى.

«الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق، إن ربي لسميع الدعاء». إبراهيم41

«فاستجبنا له ووهبنا له يحيى». الأنبياء89

«ووهبنا لداود سليمان، نعم العبد إنه أواب». ص29

«يهب لمن يشاء إناثا ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوجهم ذكرانا وإناثا ويجعل من يشاء عقيما». الشورى47-46

أما الملائكة فهي لا تهب الولد، وإنما تبشر به:

«قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم». الحجر53

فتكلم الروح بلسان الإله، وهذا يبعد كونه مخلوقا، إذ المخلوق لا يهب شيئا، بل الواهب الله.

ثالثا: خصوصية عيسى عليه السلام في الخلق: إذ أوجده الحكيم العلام من أم عذراء طاهرة، بروح منه، فما أزكاه من غلام، زكاه الله تعالى تزكية وأيما تزكية.

«إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين». آل عمران42

رابعا: ظهر على عيسى عليه السلام، منذ نفخ الروح فيه، المعجزات والخوارق ما لم يظهر على غيره، ومن ذلك تكلمه في المهد، وعندنا، حسب ما ذهبنا إليه، أنه عليه السلام تكلم قبل المهد، بل كان ذلك في المخاض، وهو لا زال جنينا.

«فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت: يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا، فناداها من تحتها ألا تحزني قد جعل ربك تحتك سريا، وهزي إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا، فكلي واشربي وقري عينا، فإما ترين من البشر أحدا فقولي إني نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا». مريم22 - 25

فالمتكلم هنا عيسى عليه السلام وليس الروح، فهو يثبت أمه ويطمئنها ويرشدها إلى ما جعل ربها من ماء، ويعلمها كيف تحصل على الرطب بهز جذع النخلة، بل ويرشدها إلى كيف تتعامل مع البشر، وذلك بأن تشير إليهم بما يفهمون منه أنها نذرت لله تعالى، ألا تكلم في ذلك اليوم أحدا.

ونحتج على قولنا هذا بالآتي:

أولا: قوله تعالى: «فناداها من تحتها»، الأولى أن يكون المنادي عيسى عليه السلام، لأنه كان في رحمها، والرحم يقع تحت الجسد، فلا داعي لأن يقعد الروح تحتها ويناديها، وإلا لناداها وهو قائم، كما فعل حين خرج لها أول مرة.

ثانيا: قوله تعالى: «فأشارت إليه، قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيا». مريم28

لو لم يكلمها وهو لا زال في رحمها لما أشارت إليه، مع العلم أنه فيما ناداها لم يأمرها بأن تشير إليه حين يتهمها قومها بما لا قبل لها به،وما فعلت إلا لأنها عرفت أن الذي كلمها في رحمها من شأنه أن يفعل في المهد، فكان ذلك والحمد لله.

فإن قلت: قد بشر الملائكة مريم العذراء قبل ذلك بعيسى عليه السلام، وأخبرتها بأنه يكلم الناس في المهد:

قال تعالى: «إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه، اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والاخرة ومن المقربين، ويكلم الناس في المهد وكهلا، ومن الصالحين». آل عمران 45 - 46

فقد تكون مريم أشارت إليه، لعلمها به، كما أخبرتها الملائكة قبله، وليس لأنه هو الذي كلمها من تحتها كما زعمت

وجواب ذلك من وجهين:

الأول: قوله تعالى: «فأتت به قومها تحمله»، ولم يوضع بعد في المهد حتى تشير إليه سوى إن سبق أن كلمها من تحتها كما سبق

الثاني: قوله تعالى: «ويكلم الناس في المهد»، لا يتعارض مع تكلمه في الرحم، لأنه كلمها وحدها، ولم يكلم الناس كما جاء في الآية الكريمة

فإن قلت: قد أخبر الله تعالى بأنه تكلم في المهد، وهذا يتعارض مع ما زعمت من أنه تكلم في الرحم

والجواب: إذا تعارض ذلك مع ما قلت مما ذهبت إليه، فهو بالأحرى يتعارض مع تكلمه بين يدي أمه، وليس في المهد كما أخبرت به الملائكة.

ومن هنا، يظهر أن المراد بالمهد وقت كونه جنينا، ومثل ذلك ما ورد في الأثر: «أطلبو العلم من المهد إلى اللحد»، أي من الولادة إلى الموت. والله أعلم

قلت: وهذا النذر في الصوم، فيما يتعلق بولادة عيسى عليه السلام، نجده في ولادة يحيى بن زكرياء عليهما السلام: «قال: رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا، قال: كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا، قال: رب اجعل لي آية، قال: آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا». مريم07-09

قوله تعالى: «قال إني عبد الله». مريم29

يدل على أن أول ما بلغه لقومه عليه السلام كونه عبدا من عباد الله، وذلك لعلم الله تعالى بأنهم سيتخذون المسيح عليه السلام ولدا لله، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، ودليل ذلك أنه قبل أن يتم كلامه تدخل الله تعالى وقال: «ذلك عيسى ابن مريم، قول الحق الذي فيه يمترون، ما كان لله أن يتخذ ولدا، سبحانه، إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن، فيكون». مريم 33-34

وقد ضل النصارى بما نسبوا لله الولد، بسبب ازدياد عيسى عليه السلام، بأن نفخ الله تعالى في فرج أمه من روحه، ونسوا أن الناس منذ آدم كان أمرهم كذلك، «إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم، خلقه من تراب ثم قال له كن، فيكون». آل عمران58

غلبت الروح في عيسى عليه السلام على النفس، وبما أن الروح مصدرها الله، أضفى عليه الله من بعض صفاته ما يتم به معجزاته:

الأولى: تكلمه في المهد

الثانية: إخباره بالكتاب، وبما يكون من شأن حياته وموته، وذلك من باب العلم بالغيب.

الثالثة: إحياؤه الموتى، وذلك من شأن الله تعالى، «هو الذي يحيي ويميت، فإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن، فيكون». غافر68

بالإضافة إلى إحياء الموتى، إبراء الأكمه والأبرص، وما إلى ذلك.

«إني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طائرا بإذن الله، وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم، إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مومنين». آل عمران48

فإن قيل: فما بال إبراهيم عليه السلام أحيى موات الطير:

وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى، قال أولم تومن، قال بلى ولكن ليطمئن قلبي، قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن ياتينك سعيا، واعلم أن الله عزيز حكيم». البقرة259

وما بال موسى أحيى الميت حين أمر بضربه ببعض البقرة؟

قلت: لا علاقة لإحياء إبراهيم عليه السلام للطير بأمر إحياء عيسى عليه السلام للطير من وجوه:

أولها: ابتغى الباري عز وجل مما أمر إبراهيم من إحياء الطير أن يريه كيف يحيي الموتى، كي يطمئن قلبه، أما عيسى عليه السلام فكان ذلك من معجزاته، يراه الناس جميعا.

ثانيها: أخذ إبراهيم أربعة من الطير وضمها إليه حتى ماتت وهن أحياء بخلاف عيسى عليه السلام يخلقهن من طين ثم يحييهن.

ثالثها: دعا إبراهيم عليه السلام الطير، ولم ينفخ، بخلاف عيسى عليه السلام بدأ الخلق من طين ثم نفخ فيه كما فعل الله تعالى مع آدم عليه السلام.

أما موسى عليه السلام، فلم يخلق ولم ينفخ ولم يضرب، بل قومه ضربوا الميت ببعض الفارض، ولا علاقة لهذا بموضوعنا.

الرابعة: ولا أكثر من هذا، «وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم، وإن الذين اختلفوا فيه لفي شك منه، ما لهم به من علم، إلا اتباع الظن، وما قتلوه يقينا، بل رفعه الله إليه، وكان الله عزيزا حكيما، وإن من أهل الكتاب إلا ليومنن به قبل موته، ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا». النساء 156-158

فهو لا يزال حيا إلى يومنا هذا، وسينزل قبل البعث علامة من علامات الساعة.

عن عبادة رضي الله عنه: عن النبي ﷺ قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل». أخرجه البخاري في كتاب: الأنبياء، باب: «يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق». النساء170

ونخلص بعد هذا كله، إلى أن الروح موجود أوجده الله تعالى منه، لا ندري كيف أوجده بتلك الكيفية، غير مخلوق، مبدؤه ومنتهاه إلى الله، وهو من أمر الله، ينزل ويعرج بين السماء والأرض مع الملائكة كما دلت عليه الآيات.

«تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة». المعارج04

«تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر». القدر04

والروح يتمثل ويتشكل ويكلم الناس ويكلمونه، يراهم ويرونه، ويسمعهم ويسمعونه.

والروح ممتثل لأمر ربه، حاله في ذلك حال الملائكة الكرام، يرسله إلى من شاء بما شاء.

وقد حق لك أيها الأخ الكريم أن تتساءل: ما موقع الروح من التكليف والحساب، إذا كانت من الله آتية، وإليه راجعة؟ هذا ما سنفصل فيه القول على حسب علمنا في آخر الرسالة المباركة، والله المعين.

مـن روحـه روح البـشـر ... أمـر من الله اشـتـهـر
من شـأنـه روح نـزل ... فـاسـأل أجـب عما استتر
الـروح سـر قـد سـرى ... بالـنـفـخ في روعـي وقـر

الملك نـــور

والملك نور، ليس ضوءا كما تضيء الشمس، وليس سراجا وهاجا، ولا قمرا سطع نوره على الفجاج.

و ليس نوره من نور الله صادر كصدور الروح، وإن كان الله نور السموات والأرض، وإنما هو مخلوق عابر، لا وعد له بالخلود، فالخلود للإنسان.

الملائكة زينة الملكوت، زينوه فازدان، كما تزين ورود القرنفل البيضاء إحدى الجنات.

ومن ظن أن الملائكـة أعوان الله فقد أشـرك بما نسب له من عجـز، وإنما هم من قبيل البشرى للمؤمنين، ومن باب الأنس للصابرين.

«بلى إن تصبروا وتتقوا وياتوكم من فورهم، هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين، وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم». آل عمران 125-126

يزينون الكون بالغدو والرواح، كما يزين الحمام حين يطير ويسنح، بعض الفضاء عند الصباح.

«الحمد لله فاطر السماوات والارض جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع، يزيد في الخلق ما يشاء، إن الله على كل شيء قدير». فاطر01

روى ابن مسعود عن أبي إسحاق الشيباني قال: سألت زر بن حبيش عن قول الله تعالى: «فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبده ما أوحى». النجم 9 - 10، قال: حدثنا ابن مسعود أنه رأى جبريل له ستمائة جناح. أخرجه البخاري

منهم الذاكرون المؤلهون، ما خلقوا سوى للذكر والتأليه.

ومنهم القائمون بشؤون الخليقة، يسعون بين الأرض والسماء، وفق ما دبره الباري عز وجل.

ليسوا ذكورا ولا إناثا، لا يعصون الله ما أمرهم بالضرورة، ويفعلون ما يؤمرون، أوكل إليهم أمور البريئة،كل على حسب اختصاصه، جزاء وعقاب، وخص منهم بالملك ما خص.

هم درجات عند ربك، عليهم رؤوس تحكمهم، يمشون على حكمها دون تلجلج، والأقرب إليه منهم جبريل.

«إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين». التكوير19-21

جعل منهم ملائكة الرحمة، وهم الأغلب، لا يغضبون، ولا يؤذون، إلا ما شاء الله تعالى؛ منهم طائفة حضرت بدرا وقاتلت المشركين، ولولا أن دلها الله تعالى على مقاتلهم ما قتلوا، أرقاء مشفقون على الخلق، يدعون الله بالمغفرة للمؤمنين، ويرجون الهداية للضالين، «والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض، ألا إن الله هو الغفور الرحيم». الشورى03

لا يعرفون الغل، كأنهم صبية، ولا يطيقون معاصي الخلق وظلمه.

يخافون الله خوفا شديدا، ويسألون السلامة لأنفسهم ولغيرهم، ولو أنهم لا يذنبون.

و منهم ملائكة العذاب، لا يفترقون عن ملائكة الرحمة بشيء، سوى بأشكالهم، إلا أن هؤلاء لا يعرفون الرحمة ولا يضحكون، ولذلك خلقهم، سبحانه من حكيم خبير.

وإذا كان الرسل والأنبياء خير خلقه على الإطلاق، فقد شرفهم بأن بعث إليهم جبريل خير ملائكته، فشرف بهم وشرفوا به.

لا يتنزلون إلا بأمر الله

«و ما نتنزل إلا بأمر ربك، له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك، وما كان ربك نسيا». مريم 64

لا يدركون من المعارف سوى ما هم في حاجة إليه، كل على حسب مهمته.

و ما خلقهم ربهم حاجة إليهم، وإنما خلقهم كما أسلفنا، لكي يعمر الكون

و ما خلقهم ولا خلق غيرهم سوى لإثبات ألوهيته، إذ لا إله بغير عبد، ولا خالق بغير خلق، ولا بارئ بغير برية.

الا ابليس كان من الجن

وأما الشيطان، فقد رفعه ما رفع غيره من جنسه، أعني أنه خالط النورانيات وهو نار، وسكن السماء وهو أرضي، فياله من فضل حباه به الرب المفضال !

وبعدما رفعه، أدخله الجنة مع آدم وحواء، وهو لا زال تحت التكليف، فدخلها عارفا بأخبار السماء، عالما بأخبار الأرض، فكانا معه كالصبيين لا يعرفان المكر والخداع، فغلبهما وأغواهما، وهو يظن نفسه قد أفلح، وهو لا يدرك أن الله تعالى، لما خلق الجن، خلقه أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان، إذ لم يكمل الله تعالى الخلق إلا مع آدم.

«لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم». التين 40

كما لم يكمل الدين إلا مع محمد ﷺ، ولو كان إبليس إنسانا، لما امتنع عن السجود، كيف وقد أمره الرب العظيم؟

ولم يدرك إبليس أن الله ما وضعه حيث وضعه إلا ليفعل ما فعل، ولو لم يفعل ما فعل، لانتفت ذريعة الهبوط من الأعلى إلى الأسفل.

وقد ظن إبليس أن الله تعالى أمد له في عمره، وأرجأ عذابه رحمة به فحسب؛ فلو لم يمل له حتى تقوم الساعة، لاختل ميزان التكليف على وجه الأرض، ولما عرف الثابتون من غير الثابتين، فكان سلاحه الوسوسة، يغوي بها غير عباد الله، ويمتحن الله بها العباد.

مـــالي ونـفـســـي والهوى   إبـلـيـس عـبـد مـا غوى
لــو يـــدري مـــا الله قضى   لم يـخـش مما قـــد نوى
لـــــولاه مـــا كـــان الجزا   لـــولاه مـــا كـــان النوى

فاقتضت حكمة الله تعالى، رحمة بالعالمين، أن يواجه وسوسته، ويكسر من شوكته، حتى لا يطغى الباطل على الحق، فتختل الموازين بثلاثة أمور:

بالاستعاذة منه، «وإما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله، إنه هو السميع العليم». فصلت 35

والثاني: بقبول توبة التائبين، «كتب ربكم على نفسه الرحمة أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فإنه غفور رحيم». الأنعام 55

والثالث: بنزع سلطانه عن عباده المخلصين، «قال : فبعزتك لأغوينهم أجمعين إلا عبادك منهم المخلصين». ص 31-32

«إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون، إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون». النحل 99-100

وقد أخذ إبليس من العلم نصيبا: خبر الوجود والناس، ولكنه بقي جنيا لا أقل ولا أكثر، إذ الجن عنصره النار، والنار لا استقرار لها ولا سكينة ولا ثبات، وهو كذلك.

لذلك، فإبليس غير عاقل في نفسه بما عقلنا عنه، وهو يتصرف بأمر الله تعالى دون أن يدري، ومما عرف عن الله تعالى من أنه الرحمن الرحيم، ما به يطمع في الغفران.

وما نقص جلال الله عنده شيئا، وإنما عدوه الإنسان، وما ثبت في القرآن الكريم أنه تكلم في الله بما لا يرضيه، ولا أقسم فأخلف، ولا أنكر الواحد الأحد وأشرك، وإنما ذنبه الغرور، كان سبب شقائه، ألهاه عنصر النار فيه بخفته وحماقته عن الرضا بالسجود لحفنة من تراب، ولم يقدر النفخة بالنظر إلى وجه صاحبها وإطاعته، ولكن امتهنها بالنظر إلى عنصر آدم، فكان من الغاوين.

جنوده الشياطين، هم أقدر منه على الإنسان، ما زاغ عن عقيدته، إذ ليس لإبليس من بني آدم سوى الوسوسة، لذلك يغري هذا بذاك، ويضل هؤلاء بأولئك.

«وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل، إن الظالمين لهم عذاب أليم». ابراهيم24

وما أسهل أن يغوي الجن لجهلهم وفاقتهم وسذاجة عقولهم، وحتى من آمن منهم، سلطانه عليه أشد من سلطانه على مؤمني بني آدم.

وهو يفرح بالنار، ويعتبرها اعتبارا يفوق اعتباره لجميع العناصر، ويمتهن الطين أيما امتهان، إلا أنه موحد لا يعبد النار، في حين يجعل تابعيه من الشياطين يعبدونها ويقدسونها، بل ويقربون لها القرابين على أنها إلههم، حتى يكبهم على وجوههم في نار جهنم.

أما مؤمنو الجن، فمهما بلغ إيمانهم يبقى ناقصا، ولو أنهم خاشعون باكون، يعبدون الله رهبة منه، لاطلاعهم على ما لا سبيل لاطلاع الإنسان عليه، إلا بهداية من الرحمن.

فهم يجوبون السماء ما لم نجب، فيلمسون فيها ما لم نلمس، ويوقنون بوجود الملائكة ما لم نوقن، إلا أنهم لا يتلقون اللدنيات، إذ محل تلقيها الروح، وهم حياة لا روح فيها، فالحمد لله الذي فضلنا، بأن نفخ فينا من روحه، على كثير ممن خلق تفضيلا.

«وإنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا، وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا». الجن08-09

والجن كلمة جامعة:

منهم إبليس بجنوده وأوليائه الشياطين.

ومنهم المومنون والكافرون، ثم الهمل، «وإنا منا الصالحون ومنا دون ذلك، كنا طرائق قددا». الجن11

والهمل من لا دين له، إذ أن الجن أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان، ولولا منطقه لكان أشد قربا من الأنعام مما هو عليه الآن في خلقه.

وللجن من الأنعام القرون، والجلد والشعر والحوافر والذيل، وله من الحوت العينان.

وهم ألوان:

منهم الأبيض: وهو أتقاهم وأكثرهم إيمانا

ومنهم الأصفر والأحمر: وهما الأوسط قوة، ويأتي الأصفر دون الأحمر قوة وبأسا

ومنهم الأزرق والأرقط: وهما أسرع الجن على الإطلاق، وأشدهم تتبعا للروائح، يستدلون بها على صاحبها أينما كان
ومنهم الأسود: وهو أقوى الألوان السالفة وأجهلها، وإبليس منهم حسب ما ذهبنا إليه، والله أعلم.
ومن الجن من هو أقرب إلى صنف من أصناف الحيوان عن غيره: فنجده أشبه بالأسد أو الكلب والقط، وهكذا.
ومنهم الأقرن ومن لا قرون له.
وهم ذكور وإناث، ولعل إناثهم أقبح وأفجر وأعتى من ذكورهم.
لا يسترون عوراتهم إلا قليلا، لباسهم قصير، فوق الركبتين على الأغلب، إلا من هدى الله تعالى.
طوال الوجوه، وجوههم كوجوه الكلاب، طوال الذقون، منحنوها قليلا إلى الأعلى، قليلو شعر الذقن، طوال الأصابع والأظفار، لا يتطهرون من أوساخهم إلا قليلا.
لهم بهائم أشبه ببهائمنا، وسباع أشبه بسباعنا، سوى أن فيها منهم من صفات الخلقة الكثير.
منهم الناري والهوائي والمائي والترابي، ولو أنهم يشتركون في عنصر النار.
فالناري: يسكن أماكن النار ويجاورها
والهوائي: يسكن المنفرجات
والمائي: يسكن البحار والأنهار والعيون والبير
والترابي: يسكن المهامه والمغاور والكهوف والشعاب، وأغلبه في باطن الأرض.
والجن دول، كل دولة يحكمها ملك، حسب دينها أو عرفها بيد من حديد، لا مخرج لأي من الرعية عن حدودها سوى بإذن من الملك، كما هي شريعتهم، ومن خرج نكلوا به تنكيلا.
وأما الذين يخالطون البشر في دورهم وقراهم ومداشرهم، فمنهم الفارون من دولهم، لا يستطيعون الرجوع خوف التنكيل، ومنهم الهمل، يعيشون في الدور والسواقي مما يتردد عليه الإنسان، كما تعيش القطط والضفادع، وهم العمار.
فأما الفارون من دولهم، الخارجون عن شرعهم وعرفهم، فقد دأب الفقهاء في بلدنا هذا، على شكواهم إلى ملوكهم، متى آذوا إنسيا أو أثاروا جلبة.
وأما العمار، فلهم ملك موكل بأمورهم يعرف بلقبه عند ذوي هذا الشأن.
وتبقى الجنة، وهم جنود إبليس، قلما يسكنون بدن الإنسي، وإنما يوسوسون ويغرون، كما علمهم رئيسهم.
يأكلون من كل ما لم يذكر اسم الله عليه، ويشاركون في الأموال والأولاد ضعاف العقيدة، يمتعضون من الملح ويمقتونها، ولكن لا يمنع ذلك من أكلهم المالح عند المسغبة.
وقد يأكلون الطعام ولا ينقص منه شيء، وإنما يأكلون بركته إذا حط في أرض البشر وخرجوا إليه، وإذا حط في أرضهم أكلوه بالكلية.
طعامهم ما يطعم البشر، من كل ما لم يذكر اسم الله عليه، وقوتهم ما تأكل البهائم، وما تلقط الطير من الحب وغيره.
ومن طعامهم الروث والعظام، كما ورد في الأثر وصح
وعتاتهم يشربون الدم المسفوح.
والناس على حسب اعتقادهم طرائق قدد: منهم من يقرب إليهم القرابين، يشربون دمها، ويتقاطعون لحمها، يمزقونه تمزيقا.

ومنهم من يسقيهم لبنا.
ومنهم من يدخن لهم بما يحبون.
ومنهم الموحدون الحنفاء، يطعمونهم صدقة وتفضلا، إطعام معوزيهم من الإنس.
أما الذبيحة فلا تجوز إلا للواحد الأحد.
ومن خالف شريعة المولى، عن قصد أو عن غير قصد، فذبح للجن، أو تقرب إليهم بسخط الباري عز وجل احتوشته الشياطين، وخربت جسمه، وشتتت شمله، وتحاملت على أهله وأبنائه.
لا حق لهم في الشرع في أن يخرجوا للإنس، ويظهروا له كي يفزعوه، هم في أرضهم ونحن في أرضنا، بيننا وبينهم حجاب.
وقد خلقوا قبل آدم عليه السلام، وكانوا يسكنون أرضنا، فلما أهبط أبوانا إلى الأرض، وضع الله تعالى الجن في أرض ثانية، هي أرضهم، لا يخرجون منها إلا بسلطان.
«ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمإ مسنون، والجان خلقناه من قبل من نار السموم». الحجر26-27
ولا حق للبشر أن يدخل عليهم إلا بالحق، ومن دخل بغير حق آذوه بما لا قبل له به.
والزمان عندنا غير الزمان عندهم، فقد يعمر الواحد منهم عشرين قرنا، وتحمل إناثهم بالأجنة سبعين سنة أو أقرب.
ولكن القرن عندهم ليس هو عندنا، إذ سير زمانهم أسرع مما هو عليه زماننا.
ومن قال في زماننا أنه التقى جن نصيبين، من عهد رسول الله ﷺ، فقد كذب، أو كذب برفع الكاف وكسر الذال المعجمة دون تشديد، فليتق الله ربه.
يندر فيهم العلم، ويتفشى الجهل، وهم في غالبيتهم متخلفون في الحضارة والعمارة، لا زالوا يتجرون في الأسواق بسلع مزجاة، وما فتؤوا يمتهنون حرفا قديمة، كسك الصفائح، واتخاذ القفاف، وصناعة سروج الخيل والبغال والحمير، وما إلى ذلك.
أما دورهم، فالأغلب عليها جحور مثل جحور الأرانب، ومن سكن على وجه الأرض بنى بيته من القصب والسعف والدوم، وما سوى ذلك من خشاش الأرض؛ وأغلب أوانيهم ومواعينهم طين، اللهم إلا ما كان من أمر ملوكهم وكبرائهم، يبنون بالحجارة وبالمعادن يصهرونها، ويقيمون القصور والقباب يزركشونها ويزخرفونها تزيينا، ويعلون الأسوار والبروج.
يخافون من الإنس أشد من خوفه لهم، وإنما يستأسدون ما كبروا في أعين الإنس، فيغلبون عليهم.
«وإنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا». الجن06
وهم يتشكلون في أعين الناس لا في حقيقتهم، على حسب ما يظنونهم، فإذا ظننت الجني طويلا، قد يظهر لك أطول من السحاب، وإذا تصورته قويا، ظهر قويا، وإذا اعتقدت أنه يؤذيك، آذاك.
ولكن، إذا رأيته كما أحب الله تعالى أن تراه، اكتشفت ضعفه، فلا يقرب منك حتى يولي دبورا.
يصيبون الأبدان، إما بالمس، أو بإبطال بعض أعضائها وحواسها، أويسكنون بعضها، أو يستولون عليها بالمرة.
ومهما ضعفت عقيدة الرجل غلبوا عليه، ومهما قويت غلبهم.

وحتى يقيك الله منهم، لا تستعظم أمرهم، وخف المولى تخافك الأكوان، «إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم، وخافون إن كنتم مومنين». آل عمران175

لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين، ولا تحزن، فإن شدة الفرح وشدة الحزن وكثرة الهم، تفتح باب الإصابة والمس على بني آدم.

يتعاملون بالورق، هي عملتهم، وأعتى الجن من يملك منها الكثير.

ليس للذهب عندهم مقدار، وإنما يقيمون عليه، لمعرفتهم قدره عند الناس عنادا.

من طين لازب

ثم يأتي محل الامتحان، وعلة التكليف، ومناط الخلافة والتشريف، وهو الجسد.

مصدره التراب، خلقه الباري عز وجل من تراب، حمل سبعة أتربة، كل تربة بلونها، لذلك اختلفت ألوان الناس.

«ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك». فاطر82

عجن الله تعالى التراب بالماء فأصبح طينا، فخلق به آدم ثم سواه، بأن أخرج نفسه منه وألهمها فجورها وتقواها.

«قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا». الكهف36

«وهو الذي خلق من الماء بشرا فجعله نسبا وصهرا، وكان ربك قديرا». الفرقان54

«ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين». المومنون12

والجسد **بخس** مهين، مهانة التراب وبخس الطين، ولولا الروح ما أبه الحق للأجساد، وما التفت إلى ما يصنع العباد، كيف؟ وأن أصلهم التراب، وهو أمهن العناصر وأبخسها وأدناها وأحطها.

وقد شاءت حكمة الله في خلقه، في هذا الكون الذي نعرفه، أن يرفع الداني على السامي، ويأمر الثاني بتكريم الأول، حتى يمتحن المطيع من العاصي، ويعرف المذعن من المارق.

فقد فضل آدم على إبليس، والأول من تراب والثاني من نار، والنار أسمى، والتراب أوضع.

وقد خص سبحانه بالختمة محمدا ﷺ وهو الأمي من العرب، وهم أمهن الأمم، وأمر البريئة باتباعه، ومنهم اليهود الذين فضلهم الله على العالمين.

«يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين». البقرة46

كل ذلك لكي يقضي أمرا كان مفعولا.

وما خلق الجسد على ما هو عليه الآن سوى للدنيا.

فإن قيل: فما بال آدم وحواء دخلا الجنة بجسديهما؟ قلت: هناك جنتان:

فأما الجنة الأولى، فهي جنة الفصل، وموطن أصل، ومظنة للعزل، وليست جنة الفضل والمكافأة التي وعد بها المتقون.

وإن قيل: فما خطب هذه وتلك؟ قلت: الأولى غير الثانية من وجوه:

فمن حيث التكليف وعدمه:

الجنة الأولى لم يرفع عنها التكليف، بخلاف الثانية التي لا تكليف فيها.

ومن حيث الجناية وعدمها:

فالأولى جنى فيها الأبوان بمخالفة ربهما والأكل مما نهى عنه، والثانية لا تقع فيها جناية.

ومن حيث دخول إبليس وعدمه:

فالأولى دخلها، والثانية محرمة عليه.

ومن حيث الخلود وعدمه:

فالأولى لا وعد فيها بالخلود: «فوسوس له الشيطان، قال يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى». طه117، والثانية خالدة.

ومن حيث نزول الشريعة وعدمها:

فالأولى كانت قبل نزول الشريعة وتمامها، والثانية بعد ذلك كله.

ومن قال أن محمدا ﷺ عرج به بجسده فلا شأن له بالمعرفة.

وقد خلق الله تعالى الجسد أول ما خلقه، وسواه وأمده بما يهيؤه للخير والشر على حد سواء

«ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها». الشمس07-10

أما النفس، فما هي سوى حياة الجسد، بل هي حرارته.

والنفس غير الروح فيما ذهبنا إليه.

وقد خرجت النفوس من نفس واحدة، «وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة فمستقر ومستودع». الأنعام99

وإن شئت قلت: النفس عقل الجسد، لا تفكر سوى بطبعه، فيما يرغب فيه أو يرغب عنه، على حسب طبيعة التراب.

«وما أبرئ نفسي، إن النفس لأمارة بالسوء إلا ما رحم ربي، إن ربي غفور رحيم». يوسف53

أما الروح فهي سجينة في الجسد، وهي شاهدة لما يفعل بأمر النفس، لا تستطيع أن تثنيه على فعله، وإن كانت تلوح له، وقد ينثني بتلويحها، وقد يتجاهل ما تقول.

وقد تؤثر الروح في النفس، فتأخذ هذه من تلك ما يصلح حالها ويقربها إلى مولاها، فتحضى برضاه، «لا أقسم بالنفس اللوامة». القيامة02

«يا أيتها النفس المطمئنة ارجعي إلى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي». الفجر30-31

وقد نفخ الله تعالى الروح في الجسد، بعد تسويته، فلم يسجد ملائكته الكرام للجسد بعد تسويته، إذ لا يستحق السجود بذلك وحده، وإنما أسجدهم بعد أن نفخ فيه من روحه

«وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشرا من صلصال من حمإ مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين». الحجر28-29

وقد نفخها ربها فيه راضية مرضية مطمئنة، لا قبل للنفس بتلويثها، أو صدها عن هداها.

النفس عنوان الجسد تجري به فيما قصد
يحيى بها في كونه حرا ولكن في كبد
والروح ضيف شاهد عن رشده لا يبتعد

والروح لا تغادر الجسد، بل هو الذي يغادرها متى بطل ومات، فإذا نام انطلقت في اللاهوت تستريح من سجنه وتتطهر من درنه، وإذا انجذب تاهت، وإذا مات رجعت إلى باريها نقية صافية كما جاءت أول مرة.

فإن قلت: فأين المكلف من المكلف؟ فإذا كان الجسد ونفسه من أصل التراب، وسيعودان ترابا، والروح تبقى نقية طاهرة لا تذنب ولا حساب عليها، ففيم الجزاء وفيم العقاب؟

مـدى بيا لـو عرفت حسابي ما يغيب علي بالعرف كتابي
مـا خـط الـلـوح فـى غيابي دريـتـو واكـشـفـت حجابي
إلى كنت نفس فـى ثيابي مـال الـــروح شـاده بهدابي

قلت: عندي جوابك:

إذا كانت الروح في جسدها تألم وتتحسر لما تفتيه النفس على الجسد من معاص، وتفرح وتنتشي بالطاعات والسبيح، فالفاعل الجسد، والمكافأ بحسن الفعل وقبحه النفس، والأمر في الدنيا مثل الأمر في الآخرة.

إذ الجسد يعذب وتتألم النفس، أو ينعم وتتمتع.

«ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم أخرجوا أنفسكم». الأنعام94

خاتمة في خمسة فصول

الفصل الأول: في قوله تعالى: «ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض». وأن نفخ اسرافيل ما هو بنفخ الروح

ذلك أن نفخة الصور الأولى إعلام بالفناء، ونفخته الثانية أذان بالبعث، لا أقل ولا أكثر، وهي من قبيل الصيحة، قال تعالى:

«واستمع يوم يناد المنادي من مكان قريب، يوم يسمعون الصيحة بالحق، ذلك يوم الخروج». ق 41 -43

الفصل الثاني: في أن القرين ليس من الجن

القرين بالنسبة للنفس بمثابة إبليس بالنسبة لآدم وحواء، إلا أن الأول ليس من الجن، بل وجوده رهين بحياة النفس، وفناؤه يكون بموتها.

ومهما تأدبت النفس بآداب الروح ضعف القرين وهانت وسوسته، ومهما انزلقت في الرذائل والشهوات قوي ووسوس. وقد أسلم قرين رسول الله ﷺ لأن الله تعالى طهر نفسه من الدنس، فاطمأنت لربها، لأن القرين ظل النفس، يضعف بصلاحها ويقوى بفسادها.

الفصل الثالث: في قوله النبي ﷺ: «لا يومن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به».

وذلك أن الهوى رغبة النفس وأمنيتها، وهي على ما عودتها عليه من طاعة أو معصية، فخالف نفسك ساعة حتى تطاوعك على ما يرضي الله تعالى، فيكون هواك في مرضاته، وتلك علامة الإيمان.

الفصل الرابع: في المكلف من غير المكلف، ومراتب التكليف

الخلق من حيث التكليف أنواع:

أولا: خلق دون التكليف: بما في ذلك البهائم والسباع والحوت والطير، وما خلق الله تعالى من دابة، ثم صبية الإنس والجن الذين هم دون الرشد، ومجانينهم

ثانيا: خلق فوق التكليف: وهم الملائكة

ثالثا: خلق تحت التكليف: وهم الراشدون من بني آدم

رابعا: خلق من تحت التكليف: وهم الجن عامة ونساء بني آدم.

فأما الذين دون التكليف: فلأن السبب في التكليف العقل، وقد خلا منها.

وأما الذين فوق التكليف: فإن الرسالة لا تهمهم لخلوهم من النفس، وهي مناط التكليف.

وأما الذين تحت التكليف: فهم ذكور الإنس العاقلون الراشدون، ويهم التكليف منهم النفس.

وأما الذين من تحت التكليف: فمنهم الجن الذين كلفوا لتوفرهم على العقل، ونقصت تكاليفهم عن البشر لخفة عقولهم وسفاهتها.

وأما النساء فهن ناقصات عقلا ودينا، فلذلك دخلن فيمن كان من تحت التكليف، إذ أن حواء خلقت من آدم، والأصل يكون دائما أقوى من الفرع.

وكلما زادت وطأة التكليف زاد الحساب، فنسأل الله تعالى حسن العاقبة.

الفصل الخامس: في قوله تعالى: «يوم يقوم الروح والملائكة»

الروح واحد مهما تعدد النفخ منه، وكل نفخة روح، لأن الله تعالى سمى عيسى عليه السلام روحا.

وأرواح البشر تفارق الأجساد بموت النفوس، وترجع إلى الروح الأول، مع العلم أنها لا تنفصل عنه بالمرة عند النفخ.

وأما ملك الموت فلا يتولى سوى النفس، أما الروح فهي من أمر الله تعالى.

قال الله عز وجل: «ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطو أيديهم أخرجوا أنفسكم». الأنعام94

والنفس هي محل الحساب، وموضع الجزاء والعقاب، أما الروح فتقوم مع الملائكة شاهدة بما فعل صاحبها.

وإذا مات المرء خرجت منه الروح إلى ربها، وتولى ملك الموت النفس، وأهل البرزخ نفوس لا أرواح فيها، ولا تعاد أرواحهم سوى عند البعث، قال تعالى: «وإذا النفوس زوجت» التكوير07

وبعد الحساب، يكون العاصون في النار نفوسا بلا روح،ويخلد المتقون في الجنة بأرواحهم.

وكل من لحقته الشفاعة ردت إليه روحه.

تم الفراغ منه في: 17 ذي الحجة 1428 الهجري

موافق: 007/12/28

والحمد لله رب العالمين



كتاب الخوف

ويليه: كتاب البيت الحرام



تـقـديم

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه.

«الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب». الرعد22

يقول أبو الفتح الجعفي عفا الله عنه وعن والديه:

الحمد لله، جعل الليل والنهار آيتين، فمحا آية الليل وجعل آية النهار مبصرة، خلق الجنة والنار، ليجازي قوما مؤمنين ويعذب الكافرة، ويتوب على من شاء، في الدنيا والآخرة.

سبحانه، قهر بسطوة عزته عتاة الجبابرة، وأفنى بجبروته أباطرة الأكاسرة؛ لا يبالي بمن تكبر وطغى أن يأخذه أخذ عزيز مقتدر، متى دارت الدائرة، ولا يأبه لمن ضل عن سبيله ولم يدكر، هو أهل التقوى والمغفرة.

الغني عن العالمين، من استغنى به لم يفتقر، ومن افتقر إليه انتصر، مجيب دعوة المضطر إذا دعاه، في ليلة أعتمت واحترق فيها القمر، «حكمة بالغة، فما تغني النذر». القمر05

وصلى الله على يتيمة العقد في الكمال، تفردت بكمالها في زاهيات العقود، مسمى الصباحة والجمال، أشرقت أنوار محياه على داجيات العهود، فانشرحت لها الصدور وانفكت الأغلال، وأضاءت ببهائه أركان الوجود، في العالمين: الغيب والشهود، بما دل على مسالك المعارف كل متيم عارف، بعد أن شط المزار وعز الوصال، وبما أوضح من حكم لطائف للسوالف والخوالف، وأمن بالبشرى من العباد كل خائف مما قدمت يداه، مغفرة ورحمة في يوم هول واجف، «يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم». الشعراء 88 -89

النبي الهاشمي، تردد في أصلاب الشرفاء من آل البيت، حتى انفلق من آمنة في أكرم بيت، بدرا تما أضاء الخافقين، وأحيى من القلوب كل ميت، وحطم الأصنام التي كانت في البيت.

النبي الأمي، راعت فصاحته البلغاء، فسلموا لمنطق على غير مثال، واستسلموا لحلو لسانه وعذب البيان، وأسلموا لما سمعوا القرآن، ليس بشعر ولا نثر سبق نظيره في زمن من الأزمان.

النبي الجواد، ﷺ، ما سبحت له الأحجار والأشجار والأطيار في كل واد، وما أشرقت شمس الضحى على الجبال والهضاب والوهاد، وما بكى الحمام على أيكة في حداد، وما طار القطا أسرابا في الجو صافات في إطراد، وما خطت الأقلام في الصحائف بالمداد.

النبي اليتيم، ﷺ أفضل صلاة وأزكى تسليم، كما صلى وسلم على خليله إبراهيم، في نهار تلألأ بنور الشمس أو في الليل البهيم، ما سافر مسافر وأقام المقيم، وما اشتاق جاهل لعلم عليم، وما أرعد المزن وجاد بالغيث العميم.

النبي العربي، ﷺ أفضل ما صلى على نبي، وسلم عليه وهو صبي، إلى أن توفاه ما هو به حيي، ما توالى الليل والنهار على آدمي، وما أشرقت شمس وأسرج القمر بنوره البهي.

صلاة وتسليما يرفعان قدره على العالمين، ويبوئانه منزلا في أعلى عليين، ويرضيان عليه وعلينا المولى، أحسن الخالقين؛ وعلى آله وصحبه وسلم تسليما.

اللهم اجعل صلاتنا عليه نجاة لنا ولأهلينا وعترتنا وأصحابنا يوم القيامة من لفح النار، واكتبنا بها يا وهاب في جملة الأبرار، وثبتنا بها عند الموت وبعد الإقبار، واغفر بها ذنوبنا، وبدل سيئاتنا حسنات، بمنك وكرمك يا رحمن يا غفار.

وأشهد ألا إله إلا الله مالك يوم الدين، لا إله إلا هو الملك الحق المبين، خلق آدم من طين، وعلمه الأسماء وأكرمه، وأسجد له ملائكته أجمعين، بعد أن سواه ونفخه وأدخله الجنة حتى حين، نهاه فخالفه ولم يجد له عزما وكان من الناسين، فأهبطه واستخلفه ووعده بالحسنى ما أطاعه واتبعه يوم الدين.

المحيط بما يروج في عوالم دائرات كل ما فيها بهيج، وبضمائر ثائرات قد درى بما يعوج، وبحار لجيات أمواجها تهيج.

ذو القوة المتين، أعجز الطاغين بطشه ما تعالوا في الأرض صاغرين، وأفنى الفراعنة مكره بعدما أمهلهم حتى حين.

وأشهد أن سيدنا محمدا رسول الله صلى عليه الله وسلم، شهادة يستقيم بها أمري، ويزيد بها صبري، ويضيء بها قبري، وأكون بها من الناجين.

قال الشيخ من شعره:

سواكب دمعي قد غدرت الأمين ... لكم أكتم الشكوى ولا تكتمين
حفظت فؤادي سر صب ولم تبح ... فما لك بالليل افتضحت أنينا
تبوح لأقلامي فتشكو قوافيا ... جحيما من الأشواق كان سجينا
ولكن لساني يلفظ القول جاهلا ... بما تعرف الأقلام ليس مبينا
أغالب صمتي والسهاد مغالبي ... وأحفظ سري عن لساني سنينا
أنا من شربت العلقم المر كأسه ... وتهت من الأحداث منذ ابتلينا
تلألأ صبح واستنار نهاره ... بمولد خير الخلق في العالمين
رسول من الله أتانا بمكة ... فتهنا به فخرا على الأولين
فلله ما أبهى صبيا جبينه ... كمشكاة نور ليس منه جبينا
فلم يرق جن للسماء ولم يجد ... شهابا من الله يصده حينا
ونار المجوس امتاز عنها لهيبها ... وأطفأها نور أتى من نبينا
وآمنة الغراء سلها عن الرؤى ... وفي بطنها هذا النبيء جنينا
فمن رحمها نور سرى يبهر الورى ... شمال الدنى أبدى وأبدى اليمين
محمد تاهت في جمالك أعين ... بها حور لما فتحت العيون
فما يوسف الأبهى يقاس جماله ... بخير الورى حسنا وجودا ودينا
كأني بشمس أشرقت في أديمه ... وما غربت إلا لتطلع فينا
وداود إن يسمعك يطرب بلفظة ... وأين لموسى قوة الراحمين
وأيوب إن يصبر لداء بجسمه ... فصبرك عن أعدائك الجاهلين

أما بعد: فيقول العبد الفقير إلى ربه الغني: أبو الفتح الجعفي، المالكي مذهبا، الشاذلي مسلكا، المغربي مولدا ومنشأ، الراجي من مولاه عفوه وغفرانه:

هذا كتاب كتبناه في حزن واكتئاب، في أوقات عصيبات، أمضيناها في تيه واضطراب، تصدنا عنه صدا، فنأبى ألا يكون اكتئاب.

كتاب ليس ككل كتاب، فيه عبرة لأولي الألباب.

وما قيدناه نبغي به شهرة وتمكينا، ولا سطوة على من يلينا، ولكن سطرناه بأيدينا، حتى يكون صدقة جارية، متى بلينا، وضمنا القبر، ونسي الأهل الدفين.

ولولا خوفنا أن يقول المولى: ما فعلتم؟ ما قيدناه، فما يكون لنا أن نزاحم الأسياد، ونجاري الأفراد فيما قيدوا، ولكنهم كانوا لنا أسوة، وهم السابقون فيما به خلدوا، ولولاه ما عرفناهم وما دعونا لهم بالخير بعد أن رقدوا؛ فو الله ما مات من أورث العالمين علما يقربهم إلى الحي الذي لا يموت، وإنهم يوم القيامة لمن السعداء بما قدموا في حياتهم للناس، ما يدلهم على طرق الوصول إلى مالك الملك، وآداب النجوى في حضرة رب الملكوت

فاللهم اكتب ما كتبنا فيما كتبت مما كتبوا من صالح الأعمال، واجعل لهم منه أجرا، إذ لولاهم ما كتبنا، واقبله منا قبولا حسنا، واجعله خالصا لوجهك الكريم، لا نريد به علوا ولا فخارا.

إخواني، هذا الكتاب يتابع الخوف ومرادفاته في التنزيل الحكيم، ويبين كيف أن كل مرادف منه يعني غير ما يعنيه غيره، ويستعمله الله تعالى، جلت قدرته، في محل لا ينوب عنه سواه.

وقد دعت الضرورة، إلى معرفة فقه الخوف، حتى يعرف الإخوان كيف يدعون ويخاطبون الملك، وهم متأدبون في هذه الاستعمالات، حتى يدخل دعاؤهم وخطابهم في الكلم الطيب الذي يصعد إليه بدون واسطة، وفي الوقت نفسه، نزيد الإخوة قربا من فهم معاني الخوف، حتى لا يغلب رجاؤهم على خوفهم، فيعبدون الله تعالى ويتعاملون معه وفق هدي سيدنا محمد ﷺ.

وقبل أن أشرع في كتابي، لا أنسى أن أسأل الخير والجزاء، لجميع الإخوة الذين كانوا سببا في خروج هذه الصحائف المتواضعة، إما باشتياقهم لخروجها واستعجاله، وإما بما قدموا لنا من خدمات وما أسدوا من معروف، وما أدوا عنا من ديون، لولا ذلك لكان عائقا لنا عن الكتابة، ولما خرجت هذه الأسطر إلى النور.

فجزاهم الله عنا خير الجزاء، بما تكبدوا من مشاق السفر، وما فرطوا فيه من إهمال أشغالهم ورعاية عيالهم من أجل زيارتنا لوجه الله تعالى.

وكافأهم الله تعالى بما أعانونا من أموالهم ما هم في حاجة إليه، إكراما لنا أن عرفناهم بمولاهم ودللناهم على ما يرضيه، ولو أن هؤلاء الإخوة، قد اصطفاهم الباري عز وجل في صفوته وأحبابه قبل أن نلقاهم، ولما لقيناهم وجدناهم من أهل الله المقدرين قدره، وما زدناهم شيئا سوى أن ذكرناهم بما عرفوا.

والله يعلم أننا لسنا بأفضلهم، ولسنا بأكرم العالمين، بل قد نكون أحقر الناس منزلة وأحطهم درجة عند الله تعالى، ولكنهم ما داموا يقبلون كلامنا ويقبلون عليه، ويشهدون بأنه يقربهم إلى الله تعالى، فقد وجب علينا الكلام والكتابة، حتى نقوم معهم بواجب الأخوة في الله، ولو استطعنا أن نقدم لهم أغلى من ذلك لفعلنا، ولكن قلة اليد تحول بيننا وبين ذلك، «لا تدري لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا». الطلاق 01

فندعو الله تعالى أن يغنيهم من فضله، ويحفظهم في نفوسهم، وفي والديهم وأزواجهم وأبنائهم وبناتهم، وكافة أقربائهم وأحبائهم، ويريح بالهم، ويثبتهم على الحق حتى يلقوه، ويفتح لهم فتحا مبينا، وينصرهم نصرا عزيزا، ويكشف لهم من لطائف بواطن غيوبه حتى يزدادوا يقينا.

اللهم كن لهم كما كانوا لنا، ووالهم كما واليت أصفياءك، وانصرهم على من عاداهم، وأكرمهم بالبشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، واجعلهم للمتقين إماما.

وقد جاء كتاب الخوف في تسعة عشر فصلا، وهي كالتالي:

الفصل الأول في قول النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: «لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين الحديث».

الفصل الثاني في تعريف الخوف.

الفصل الثالث في خوف الملائكة المكرمين.

الفصل الرابع في أصناف الملائكة المكرمين.

الفصل الخامس في خوف الجن والشياطين.

الفصل السادس في نهي الله تعالى عباده عن خوف سواه على وجه الشرك لا على وجه الحيطة والحذر.

الفصل السابع في خوف موسى عليه السلام.

الفصل الثامن في المراد بقوله تعالى: «قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما».

الفصل التاسع في قوله تعالى على لسان هابيل: «إني أخاف الله رب العالمين».

الفصل العاشر في قوله تعالى: «ليعلم الله من يخافه بالغيب».

الفصل الحادي عشر في الرد على من ادعى أن من العارفين من إذا استأنس بالله انتفى عنه الخوف والرجاء.

الفصل الثاني عشر في بكائه ﷺ مع ذكر أنواع البكاء عامة.

الفصل الثالث عشر في صفة صلاة الخوف وأحكامها.

الفصل الرابع عشر في صفة صلاة الكسوف وأحكامها.

الفصل الخامس عشر في حقيقة الخوف وأنواع الخائفين.

الفصل السادس عشر في أن يوم الجمعة يوم خوف وفزع.

الفصل السابع عشر في الكلام عن الخشية.

الفصل الثامن عشر في ذكر ما تبقى من مرادفات الخوف والخشية كما وردت في التنزيل.

الفصل التاسع عشر في حزب الخوف.

ويليه: **كتاب البيت الحرام**

وقد جاء في سبعة فصول، وهي كالتالي:

الفصل الأول: تبع يعتنق النصرانية ويدعو قومه إليها.

الفصل الثاني: كسوة الكعبة.

الفصل الثالث في قوله تعالى: «إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين».
الفصل الرابع في ذكر بلاء إبراهيم عليه السلام.
الفصل الخامس في حديث زمزم.
الفصل السادس في ذكر أبرهة والفيل والكعبة.
الفصل السابع في دعاء الزيارة.

الكتاب الأول: كتاب الخوف

الفصل الأول: في قول النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: «لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين الحديث».

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ ذكر رجلا: «فيمن كان سلف، أو قبلكم، آتاه الله مالا وولدا (يعني أعطاه)، قال: فلما حضر قال لبنيه: أي أب كنت لكم؟ قالوا: خير أب، قال: فإنه لم يبتئر عند الله خيرا (فسرها قتادة: لم يدخر)، وإن يقدم على الله يعذبه، فانظروا إذا مت فأحرقوني، حتى إذا صرت فحما فاسحقوني، أو قال اسهكوني، ثم إن كان ريح عاصف فأذروني فيها، فأخذ مواثيقهم على ذلك (وربي) ففعلوا، فقال الله: كن، فإذا رجل قائم، ثم قال: أي عبدي ما حملك على ما فعلت؟ قال: مخافتك، أو فرق منك، فما تلافاه أن رحمه الله». رواه البخاري في صحيحه

ذلكم رجل في أمة قد خلت، رحمه الله تعالى من شدة خوفه من الله، وهو الذي قد علم أنه لم يدخر شيئا من محاسن الأعمال يلقى به ربه تعالى وهو راض عنه، فدفعه استحياؤه من الله وخوفه منه أن يحجم عن لقائه، فأوصى بنيه كي يحرقوه ثم يسحقوه ويذروه في الرياح، حتى لا يبعث إلى باريه فيعذبه عذابا شديدا

ذلك رجل أتاه اليقين، ولولا يقينه بلقاء ربه ما فعل ما فعل؛ وفي ذلك زيادة الخوف ما زاد اليقين، إذ الأخير أساس الأول، إذا زاد زاد، وإذا نقص انتقص.

عجبت لمن يدعي اليقين ولا يخاف الحق المبين، أفرط في أداء الشعائر وفرط في اتقاء سوء المصائر، اللهم اجعل خير أعمالنا خواتيمها وخير أيامنا يوم لقائك.

لم يحاسبه الله، تعالى عن ذلك علوا كبيرا، عن وصيته لأبنائه بالخروج عن شريعته في مراسيم الجنازات، بل عد سبحانه ما خرج من قبيل القربات.

فعل ما فعل استحياء من لقاء الباري عز وجل، وهو يعلم عين اليقين أنه لا شك مبعوث، فما يعجز الله تعالى أن ياتي به مهما ذر غباره في الرياح العاصفات، ولكن من شدة علمه بسعة رحمته، تصرف تصرف الراجي عفو مولاه، كي يرحمه حين يلقاه، ما خاف من لقياه.

خوفي منك عالاجساد   تحرق بالنار اجسادي
تبدل جلدي بعد كساد   توشم بالكي اكسادي
علاه أنا ما جنيت فساد   ما عتيت على عبادي
يوم الحساب يوم المعاد   خوفو ازعج رقادي
رضيت بحريق الاعواد   وصيت به اولادي
بعد ما نصير رماد   يذروني فالوادي

نمحي وجـــودي مــن البلاد   ولا نـــلـــقـــى الهـــــادي
نــار في اعضــايا تـنــقــاد   لهيبها لا زال كـــــــادي
مــا نشعر بشي يــا الاجواد   مــالي لحــد فــى الحــــادي
ولا نــار واقــده تـــوقــاد   يــــوم الصـــور يــنـــادي
لما يـــقــومــوا الاشـــهــاد   كشفـــوا ذنـــوبي اشــهـادي
كــلــهــا فيــن انـــقـــاد   وانـــــا قــلـــيـــل زادي
ســـوى ربــي لا جـــــاد   يــســكـــد تــكـــوادي
يــغــفــر ذنـــوب عـــداد   نـبـلـغ بـرحـمـتـو مـرادي

عبدي، حرقت نفسك في الدنيا خوفا من لقائي، وفاتك أنني أنا الرحمن الرحيم، أي إله عرفت؟ هذا الذي يوقد النار بأجساد أحبائه، أي إله عبدت؟ هذا الذي من شدة بطشه يخاف الناس لقاءه حتى أنهم يمحون أجسادهم كي لا يلقوه فيعذبهم عذابا شديدا ؟!

عبدي، أسأت إلي من حيث لا تدري، وخلعت عني رداء الرحمة وعباءة الغفران، ومع ذلك سأرحمك وأغفر لك ما نعتني به من صفات لا تليق بجلالي، سأرحمك، لأبين لك أن ربك لا تدفعه إساءة عبده إلى التخلي عن جميل صفاته، فادخل الجنة مع الداخلين، وتبوأ منها حيث تشاء، فإنك من الآمنين

أنا أعلم بك من نفسك، أليس فعلت ما فعلت لتثبت لي شدة خوفك، وأنت تعلم أنني لا أعذب الخائفين: من خافني في الدنيا أمنته في الآخرة؟.

أخبرنا الحسن بن سفيان قال: حدثنا إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني، حدثنا عبد الوهاب بن عطاء، حدثنا محمد بن عمرو عن أبي سلمة عن أبي هريرة عن النبي ﷺ يروي عن ربه جل وعلا قال: «وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين، إذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة، وإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة». رواه ابن حبان في صحيحه

وما فعلته حتى لا ترد علي، لأنك تعلم أنه لا يفوتني شيء، ولو كان الجسد المذرو في الرياح.

أنا عند ظنك، إذ ظننت أن فعلك سيدفعني إلى رحمتك، فليكن ما ظننت، لأنني لا أخيب من ظن بي خيرا، كذلك أخذت على نفسي.

«ما يبدل القول لدي وما أنا بظلام للعبيد». ق29

عباد يرغبون في تحريق أنفسهم خوفا من عذابي، وعباد يرغبون في تحريق أنفسهم من شدة حبهم وشوقهم إلى وجهي الكريم، لا يطيقون يوم اللقاء من هول الوله والمحبة، ليس هؤلاء وأولئك عندي سيان.

تخوفني بالنــار عند انكــوائي   بنار اشتياق طال فيها بقائي
ترى خوف ما أوقدتم من شرارة   يداوي جراحا ما لها من دواء

فأحرق خليلا واشو قلبا يحبكم فما لفحها إن ما رضيتم شوائي
فما تأكل النيران قلبا مفحما بوهج الجوى لما تدانى التنائي
شربنا كؤوسا حاميات بسكرها فما شرب كاس الجمع يوم اللقاء
إذا شئت فاغفر من ذنوبي بقية وإلا فعذب إن رضيت شقائي
تساوى لدي الأمر ما كان منكم فكيف أبالي بالأمور الســواء

الفصل الثاني: في تعريف الخوف

قال ابن منظور: الخوف: الفزع، خافه يخافه خوفا وخيفة ومخافة، ومنه: التخويف والإخافة والتخوف، والنعت: خائف، وهو الفزع؛ وقوله:

أتهجر بيتا بالحجــاز تلفعــت به الخوف والأعداء أم أنت زائره؟

إنما أراد بالخوف المخافة، فأنث ذلك. انتهى

قال في الرسالة: سمعت الأستاذ أبا علي الدقاق يقول: الخوف على مراتب: الخوف والخشية والهيبة؛ فالخوف من شروط الإيمان وقضاياه، قال الله تعالى: «وخافون إن كنتم مومنين»؛ والخشية من شروط العلم، قال تعالى: «إنما يخشى الله من عباده العلماء». فاطر28؛ والهيبة من شروط المعرفة، قال تعالى: «ويحذركم الله نفسه». آل عمران30. انتهى من الرسالة القشيرية

سئل الجنيد عن الخوف فقال: توقع العقوبة مع مجاري الأنفاس. انتهى من المرجع نفسه

وقال بعضهم: ما رأيت رجلا أعظم رجاء لهذه الأمة، ولا أشد خوفا على نفسه من ابن سيرين. انتهى من المرجع نفسه

وقال ابن عطاء الله يروي عن شيخه المرسي: وقال رضي الله عنه: الخوف على قسمين: خوف العامة وخوف الخاصة: فخوف العامة على أجسادهم من النار؛ وخوف الخاصة على خلعهم التي كساهم مولاهم أن تدنس بالمخالفة. انتهى من لطائف المنن

قال أبو الفتح: نظرت إلى الخوف في كتاب الله العزيز، ففهمت أن الله تعالى يحبذ من عباده أن لا يخافوه، بل يخشوه، وترك الخوف للملائكة وللجن والشياطين، وأما العباد، فمن خاف غير الله ابتدأه بأن ينزع خوفه من سواه ويرده إليه وحده.

الخوف توجس النفس من حصول المكروه.

وإن شئت قلت:

الخوف توقع الكرب والأحزان بما قدر الرب على الإنسان.

ما خاف الله من خاف ناره حين يلقاه، بل الخائف من خشي مولاه دون سواه.

وإن شئت قلت:

الخوف شريعة العبيد، عبدوه خوفا من سلاسل الحديد، والخشية شريعة الصيد عبدوه على أنه الغني الحميد
وإن شئت قلت:
الخوف قائم ما قامت النار، والخشية مابرحت من قلوب الأحرار.
عجبت لمن خاف السعير ولا يخشى من أوقدها، لو خشي الواحد القهار أمن لفح النار.
والعباد في الخوف ثلاث:
عبد خاف من ألا يخاف النار خوف العبد من سياط الأحرار
وعبد خاف من أن يحرم فيء الأشجار، ذلك في زمرة التجار
وعبد خشي الواحد القهار، ذلك من المقربين الأخيار

الفصل الثالث: في خوف الملائكة المكرمين

يقول الله تعالى: «ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون، يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون». النحل 49 - 50
اعلم رحمك الله، أن الملائكة أطيار للكون وأطياف بلا لون، أصلهم النور، اتصفوا بصفاته وتطبعوا بطبعه، لا يعرف الغبش ولا يلحقه الدنس، مخلصون لله، خلقهم جواهر نقية، فأخلصوا له الطاعة والعبادة، فلا يرى منهم عاص ولا متمرد، وما جاؤوا في سياق القرآن الكريم إلا موصوفين بحسن النية وسلامة السريرة وإخلاص الطاعة، وإلا ذاكرين ساجدين، لا يفترون عن ذلك طرفة عين، ولا يملون من التوجه لمولاهم في كل حين وفي كل أين، مخافة أن يفرطوا فيما خلقوا له، فهم لا شك قائمون بما أراد منهم الواحد القيوم.
إلا أن الملائكة الكرام، هم أشد خوفا من الله تعالى، رغم كونهم غير مذنبين بالضرورة، من الثقلين الذين يذنبون بالليل والنهار في حق الواحد القهار.
وقد اتسموا بالخوف، لمعرفتهم بعزة المتكبر وجبروته، فهم خاضعون مستسلمون لما عرفوا من شدته وعاقبة مكره، لا يرغبون في شيء سوى السلامة، وزيادة القرب منه، زادهم الله قربا من الحضرة الإلهية التي أهلهم لها.
ومن رحمة الله تعالى بعباده، أن كتب محبتهم في قلوب ملائكته، فكانوا لهم عونا وتأييدا، ولا أدل على ذلك من شهودهم بدرا؛ وكانوا لهم بشارة **وتطمينا**، «بلى إن تصبروا وتتقوا وياتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين، وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم». آل عمران 125 - 126
وكانوا لهم مستغفرين عند مولاهم، إذ خص الباري عز وجل أقرب الملائكة إليه، أولي الدرجة العلية والتشريف الأسمى، وهم حملة العرش، بالمومنين يستغفرون لهم الله تعالى، عله يرحمهم، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، «الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويومنون به ويستغفرون للذين آمنوا، ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم، ربنا وأدخلهم جنات عدن التي

وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم، إنك أنت العزيز الحكيم، وقهم السيئات، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته، وذلك هو الفوز العظيم». غافر 6 - 8
وقد دلت الآية الكريمة على أن الوجود كله مذعن لمولاه، وعني تعالى بقوله: «ما في السموات وما في الأرض من دابة»، غير المكلفين، ثم زاد الملائكة بعد ذلك، لأنهم كذلك.
«هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته». الرعد 13 - 14
فتبين أن غير المكلفين يتعاملون مع الله تعالى بالخوف وليس بالخشية، كما سنراه في محله إن شاء الله تعالى.
يقول العز بن عبد السلام رحمه الله تعالى: ولا شك أن أجساد الملائكة أفضل من أجساد البشر، وأما أرواحهم، فإن كانت أعرف بالله تعالى وأكمل أحوالا من أحوال البشر، فهم أفضل من البشر، وإن استوى الأرواح في ذلك، فقد فضلوا على البشر بالأجساد؛ فإن أجسادهم من نور، وأجساد البشر من لحم ودم.
وفضل البشر الملائكة بما ذكرناه، من نعيم الجنان وقرب الديان، ورضاه وتسليمه وتقريبه والنظر إلى وجهه الكريم.
وإن فضلهم البشر في المعارف والأحوال والطاعات، كانوا بذلك أفضل منهم، وبما ذكرناه، مما وعدوا به في الجنان.
ولا شك أن للبشر طاعات لم يثبت مثلها للملائكة، كالجهاد والصبر ومجاهدة الهوى، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصبر على البلايا والمحن والرزايا، وتحمل مشاق العبادات لأجل الله تعالى، وقد ثبت أنهم يرون ربهم، ويسلم عليهم، ويبشرهم بإحلال رضوانه عليهم أبدا، ولم يثبت مثل هذا للملائكة، وإن كان الملائكة يسبحون الليل والنهار لا يفترون؛ فرب عمل قليل يسير، أفضل من تسبيح كثير، وكم من نائم أفضل من قائم، وقد قال الله تعالى: «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك هم خير البريئة». البينة07، أي خير الخليقة؛ والملائكة من خير الخليقة، ولا يقال: الملائكة من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، لأن هذا اللفظ مخصوص في عرف الشرع بمن آمن من البشر، فلا يندرج فيه الملائكة الأبرار لعرف الاستعمال. انتهى من الفوائد
قال الشيخ عفا الله عنه: فضل الله تعالى بني آدم على كثير ممن خلق، ولا أدل على ذلك من أنه أسجد لأبيهم آدم ملائكته، بعد أن سواه ونفخ فيه من روحه؛ وليست الملائكة عندنا بذوي أرواح، وإنما المشرف بنفخ الروح آدم لا سواه، أما العلوم والمعارف، فحسبنا ما علم العليم الحكيم آدم عليه السلام من أسماء، عجزت الملائكة أن تنبئ بأسمائهم حتى أنبأهم آدم عليه السلام بأسمائهم كلها؛ فالحمد لله الذي فضلنا على كثير ممن خلق تفضيلا

الفصل الرابع: في أصناف الملائكة المكرمين

اعلم رحمك الله تعالى وأنعم عليك بالبشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، أنني نظرت فيما ذكره أسلافنا من العلماء والمفسرين عن الملائكة، وما وصف به أهل الذوق والمكاشفات من عباد الله الصالحين، مما تيسر النظر فيه، أحوالهم وتنزلاتهم، وأقسامهم، فلم أجد ما يشفي الغليل ويقر به البال في كل ما نظرت، فارتأيت أن أدلي بدلوي، ببعض ما فتح الله به علي من معارف في شأن عباد الله المكرمين.

أولا: خلق الملائكة

قد تبين من المنقول، أن الملائكة خلقوا من نور، فهم مخلوقات نورانية، ليس نورهم بضوء يشبه ضياء الشمس والقمر،

كما يظن كثير من الناس، ومن رآهم على حقيقتهم دون تمثل أو تشكل، فقد رآهم ببصيرته وليس ببصره، وقد يرون بالنظر المجرد وهم على صورة ليست صورتهم، كما رأى الصحابة الكرام جبريل عليه السلام في الصحيح

والظاهر أن الله تعالى خلق الملائكة بأجنحة كالطيور، ليزين بهم عالم الملكوت، كما زان بالطير عالم الملك، وفي ذلك وحدة الخلق قائمة بين العالمين، وهي دليل على وحدة الواحد الأحد.

ودليل ذلك: قوله تعالى: «الحمد لله فاطر السموات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع، يزيد في الخلق ما يشاء، إن الله على كل شيء قدير». فاطر01

ومن الملائكة من له أكثر من ذلك.

حدثنا قتيبة، حدثنا أبو عوانة، حدثنا أبو إسحاق الشيباني قال: سألت زر بن حبيش عن قول الله تعالى: «فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إلى عبـده ما أوحى». النجم09، قال: حدثنا ابن مسعود أنه رأى جبريل له ستمائة جناح. رواه البخاري

حدثنا عبيدالله بن معاذ العنبري، حدثنا أبي، حدثنا شعبة عن سليمان الشيباني، سمع زر بن حبيش عن عبد الله قال: «لقد رأى من آيات ربه الكبرى». النجم18، قال: رأى جبريل في صورته، له ستمائة جناح. رواه مسلم

فإن قلت: فما تصنع الملائكة بالأجنحة، وهي لا تنفعها في الطيران خارج الأرض؟

قلت: لا تستعمل الملائكة أجنحتها للطيران، ولا ترفرف بها كالطير، وإنما تحملها على ظهورها زينة لها، كما اقتضت حكمة الباري عز وجل في جميل صنعه، وهي تتنقل بين السماء والأرض دون أن تستعملها، ولكنها قد تبسطها أحيانا دون أن ترفرف بها.

ودليل ذلك أن الله تعالى لم يصف تنقل الملائكة بالطيران، وإنما وصفهم بالعروج والتنزل، وما أشبه أسراب الطير صافات في السماء بأسراب الملائكة.

ثانيا: مراتب الملائكة:

قال تعالى: «وما منا إلا له مقام معلوم». الصافات164

وقال: «لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون». النساء171

وقد أشارت الآيتان إلى أن درجات الملائكة في القرب من الله تعالى متفاوتة، وقد ارتأينا تقسيمهم حسب ما بدا لنا مما ورد في التنزيل.

أولا: ملائكة الحضرة الإلهية

وهم الذين أعلمهم الله تعالى بخلق آدم عليه السلام قبل خلقه، وقد ذكرهم الله تعالى في سياق الرد على من ادعى الولد لله، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

«وقالوا اتخذ الرحمن ولدا، سبحانه، بل عباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى، وهم من خشيته مشفقون، ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم، كذلك نجزي الظالمين». الأنبياء 26 - 28

ومنهم جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل عليهم السلام، وخص جبريل عليه السلام بمقام عند الله تعالى لم يبلغه غيره من الملائكة الكرام، «إنه لقول رسول كريم ذي قوة عند ذي العرش مكين مطاع ثم أمين». التكوير 19 - 21

ومنهم حملة العرش الثمانية، وكثيرا ما عرف الله تعالى ملائكة الحضرة الإلهية بأنهم «عنده»، كما في قوله تعالى: «إن الذين عند ربك لا يستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون». الأعراف206

وقال بأنه يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، وبأنهم لا يشفعون إلا بإذنه، وبأنهم لا يتكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون

وهم خاصة الرحمن، بما في ذلك حملة العرش، وقد جمعهم الله تعالى في قوله: «الذين يحملون العرش ومن حوله الآية».

ثانيا: ملائكة الروح

وهم الذين يصحبون الروح في معراجهم ونزولهم، ويذكرون في التنزيل بمعيته

«تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة». المعارج04

ثالثا: ملائكة التصريف في أمور أهل الأرض

على رأسهم: جبريل وميكائيل وإسرافيل وعزرائيل، ثم المعقبات، وصاحب اليمين وصاحب الشمال، ومن شهد بدرا من الملائكة، وما يتنزل على المؤمنين من ملائكة، وغيرهم كثير.

رابعا: ملائكة الموت

«فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم». محمد28

خامسا: ملائكة الجنة

«وتتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون». الأنبياء103

سادسا: ملائكة النار

«عليها تسعة عشر، وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة، وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا». المدثر 30 - 31

سابعا: الملائكة المنقطعون لذكر الله تعالى وعبادته

وهم أغلب الملائكة

أخبرنا محمد بن علي بن دحيم، أنبأ أحمد بن حازم الغفاري، حدثنا عبيد الله بن موسى، أنبأ إسرائيل عن إبراهيم بن مهاجر، عن مورق العجلي، عن أبي ذر قال رضي الله تعالى عنه: قرأ رسول الله ﷺ: «هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا». الإنسان 01، حتى ختمها، ثم قال: «إني أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع قدر أربع أصابع إلا ملك واضع جبهته ساجدا لله، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا، وما تلذذتم بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله تعالى؛ والله لوددت أني شجرة تعضد». رواه الحاكم في المستدرك

وإذا ذكر الله تعالى جمع الملائكة في القرآن الكريم بصيغة المفرد، أي: الملك، فالمراد منه سائر الملائكة دون استثناء، كما في قوله تعالى: «والملك على أرجائها، ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية». الحاقة16

الفصل الخامس: في خوف الجن والشياطين

وأما الشياطين، بما فيهم إبليس لعنه الله تعالى، فهم من الجن، والجن أقرب في خلقه إلى الحيوان منه إلى الإنسان، فخوفه خوف حيواني، يخاف من الله العقاب والتعذيب، وأكثر خوفه لما رأى من عذاب وشهب، ومما عرف من شرر ولهب.

«فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال: إني بريء منكم إني أرى ما لا ترون إني أخاف الله، والله شديد العقاب». الأنفال 49

وقد أباح الباري جل وعلا لعباده الخوف من كل ما يؤذيهم على وجه الاتقاء والحيطة، بما في ذلك يوم البعث وعذاب الآخرة، ولم يبح لهم الخوف مما سواه، مما أشركوا به في العبادة، ومن خاف إلها سواه دعاه إلى رد الخوف إليه وحده.

فقال تعالى على لسان موسى عليه السلام: «ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين». الشعراء20

وقال: «وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا، إن الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا». النساء100

وقال: «إنا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا». الإنسان10

الفصل السادس: في نهي الله تعالى عباده عن خوف سواه على وجه الشرك، لا على وجه الحيطة والحذر

قال تعالى على لسان إبراهيم عليه السلام: «ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئا، وسع ربي كل شيء علما أفلا تتذكرون، وكيف أخاف ما أشركتم، ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا، فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون». الأنعام 81 - 82

«انما ذلكم الشيطان يخوف أولياء فلا تخافوهم، وخافون إن كنتم مؤمنين». آل عمران175

«أليس الله بكاف عبده، ويخوفونك بالذين من دونه، ومن يضلل الله فما له من هاد، ومن يهد الله فما له من مضل، أليس الله بعزيز ذي انتقام». الزمر35

الفصل السابع: في خوف موسى عليه السلام

قال أبو الفتح، عفا الله عنه: لم أجد نبيا من الأنبياء في القرآن الكريم، من الذين ذكرهم الله تعالى، عامله سبحانه بالخوف معاملة موسى عليه السلام، وذلك في سبعة مواقع:

الأول: طال الخوف أم موسى وهي حامل به، لأن التذبيح كان ينتظر كل مولود يولد لبني إسرائيل من طرف فرعون وجنوده، فلما وضعته أمه زاد خوفها عليه.

«وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ولا تخافي ولا تحزني، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين». القصص06

وبالنظر إلى هذه الآية الكريمة، نفهم أن الله تعالى خير أم موسى بين أن تتركه في حضنها وترضعه، وبين إلقائه في اليم، ولو اختارت الأول ما مسه مكروه، «فالله خير حفظا، وهو أرحم الراحمين». يوسف64، ولكنه تعالى، أعرف بخوف الأم على وليدها، لذلك جعل لها رخصة عند خوفها عليه، هذه الرخصة هي إلقاؤه في اليم، وما أشد ذلك على أي أم، كيف تلقي بفلذة كبدها إلى الماء، لولا أنه تعالى طمأنها وأخبرها بألا تخاف ولا تحزن، فلا بد من رده إليها سالما معافى بإذن الله تعالى.

وقد تمادت أم موسى حين أمرت أخته أن تقصه وتتبع أخباره عند آل فرعون بنظرها، حتى تتيقن من سلامته، ولو أنها كانت في غنى عن هذا الإجراء، لأن الباري عز وجل تكفل برده وإرجاعه، فلم يعاتبها سبحانه على ذلك، مراعاة منه للهفة الأمومة ورقة قلبها.

«وأصبح فؤاد أم موسى فارغا إن كادت لتبدي به لولا أن ربطنا على قلبها لتكون من المومنين، وقالت لأخته قصيه فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون، وحرمنا عليه المراضع من قبل فقالت هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون». القصص9 - 11

الثاني: بعد قتل موسى للقبطي، ومعرفته بأنه مطالب من فرعون بدمه، اعتراه خوف شديد، قال تعالى على لسانه: «فأصبح في المدينة خائفا يترقب» .القصص17

الثالث: فراره خائفا طول الطريق، قال تعالى: «فخرج منها خائفا يترقب، قال رب نجني من القوم الظالمين». القصص20

«ففررت منكم لما خفتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين». الشعراء20

ولما أدرك شعيبا عليه السلام، وكلمه قال الله تعالى في ذلك: «فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين». القصص25

الرابع: عند رجوعه من مدين ناداه الله تعالى إليه، فلما ألقى عصاه خاف منها وولى مدبرا، قال تعالى: «وألق عصاك، فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب، ياموسى لا تخف، إني لا يخاف لدي المرسلون». النمل10

«وأن ألق عصاك، فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب، يا موسى أقبل ولا تخف، إنك من الآمنين». القصص31

«قال خذها ولا تخف سنعيدها سيرتها الأولى». طه20

الخامس: خوفه عليه السلام من مواجهة فرعون لما أمره الله تعالى بذلك، قال تعالى: «قال رب إني أخاف أن يكذبون ويضيق صدري ولا ينطلق لساني فأرسل إلى هارون ولهم علي ذنب فأخاف أن يقتلون». الشعراء 11 - 13

«قال رب إني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقتلون، وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردا يصدقني، إني أخاف أن يكذبون». القصص 33 - 34

قال في لسان العرب:

والرِّدُّ: ما كان عماداً للشيء يدفعه ويَرُدُّه؛ قال الشاعر:

يا رب أدعوك إلهاً فَرْداً   فكن له من البلايا رِدَّا

أي مَعْقِلاً يُردُّ عنه البلاء. انتهى

السادس: خوفه وأخيه هارون من أن يفرط عليهم فرعون وجنوده، قال تعالى: «قالا ربنا إننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى، قال لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى». طه 44 -45

السابع: خوفه عليه السلام لما ألقى السحرة حبالهم وعصيهم، قال تعالى: «فأوجس في نفسه خيفة موسى، قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى، وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا، إنما صنعوا كيد ساحر، ولا يفلح الساحر حيث أتى». طه 66- 68

وقد يتساءل القارئ: ما بال الخوف لزم موسى عليه السلام في كل هذه المواطن وهو القوي الشديد؟ وما الحكمة من تربية الله تعالى لنبيه الكريم وكليمه الحميم بالخوف والتخويف؟

والجواب: تلك شريعة اليهود، فقد قامت على الخوف، لحكمة يريدها الله تعالى، فاتسم أتباعها بالخوف وقلة الشجاعة، أما نبيهم موسى عليه السلام، فقد عرف بالشدة والإقدام، وما كان له التخويف سوى تربية من خالقه على الثبات؛ ودليل ذهاب الخوف عنه، ما قاله في موقف تنخلع له القلوب وتتفطر الأكباد، حين طارده فرعون وجنوده من ورائه، واليم أمامه، قال تعالى: «فلما تراءى الجمعان قال أصحاب موسى: إنا لمدركون، قال: كلا، إن معي ربي سيهدين». الشعراء61 - 62، فنصره الله تعالى على عدوه نصرا مبينا

ما يبرح الخوف عن أمة اليهود حتى تقوم الساعة، وما فتؤوا ينزعجون من أن يصبحهم المسلمون مهما زادت عدتهم وعتادهم، ومهما ربا أنصارهم وتكاثر عددهم، وسيكون الخوف سبب خرابهم واندثارهم بإذن الله تعالى، كما كان الخوف سبب إيمانهم أول مرة.

«فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم» . يونس83

وقد آن الأوان، كي نعرض تقهقرهم عن الجهاد لما أمرهم نبيهم بذلك، في الفصل الموالي إن شاء الله تعالى

الفصل الثامن: في المراد بقوله تعالى: «قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما»

«قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون، قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما ادخلوا عليهم الباب، فإذا دخلتموه فإنكم غالبون، وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين». المائدة 24 -25

قال الحافظ ابن كثير: ثم قال تعالى مخبرا عن تحريض موسى عليه السلام لبني إسرائيل على الجهاد، والدخول إلى بيت المقدس الذي كان بأيديهم في زمان أبيهم يعقوب، لما ارتحل هو وبنوه وأهله إلى بلاد مصر أيام يوسف عليه السلام، ثم لم يزالوا بها حتى خرجوا مع موسى، فوجدوا فيها قوما من العمالقة الجبارين، قد استحوذوا عليها وتملكوها، فأمرهم رسول الله موسى عليه السلام بالدخول إليها وبقتال أعدائهم، وبشرهم بالنصرة والظفر عليهم، فنكلوا وعصوا وخالفوا أمره، فعوقبوا بالذهاب في التيه والتمادي في سيرهم حائرين، لا يدرون كيف يتوجهون إلى مقصد مدة أربعين سنة، عقوبة لهم على تفريطهم في أمر الله تعالى، فقال تعالى مخبرا عن موسى أنه قال: «يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة»، أي المطهرة، وقال سفيان الثوري عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس في قوله: «ادخلوا الأرض المقدسة»، قال: هي الطور وما حوله، وكذا قال مجاهد وغير واحد، وروى سفيان الثوري عن أبي سعد البقال عن عكرمة عن ابن عباس قال: هي أريحاء، وكذا ذكر عن غير واحد من المفسرين؛ وفي هذا نظر، لأن أريحاء ليست هي المقصودة بالفتح، ولا كانت في طريقهم إلى بيت المقدس، وقد قدموا من بلاد مصر حين أهلك الله عدوهم فرعون، اللهم إلا أن يكون المراد

بأريحاء أرض بيت المقدس،كما قاله السدي فيما رواه ابن جرير عنه، لا أن المراد بها هذه البلدة المعروفة في طرف الطور، شرقي بيت المقدس، وقوله تعالى: «التي كتب الله لكم»، أي التي وعدكموها الله على لسان أبيكم إسرائيل أنه وراثة من آمن منكم، «ولا ترتدوا على أدباركم»، أي ولا تنكلوا عن الجهاد «فتنقلبوا خاسرين، قالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين، وإنا لن ندخلها حتى يخرجوا منها، فإن يخرجوا منها فإنا داخلون»، أي اعتذروا بأن في هذه البلدة التي أمرتنا بدخولها وقتال أهلها قوما جبارين، أي ذوي خلق هائلة وقوى شديدة، وإننا لا نقدر على مقاومتهم ولا مصاولتهم، ولا يمكننا الدخول إليها ما داموا فيها، فإن يخرجوا منها دخلناها، وإلا فلا طاقة لنا بهم. انتهى من تفسير ابن كثير

ثم قال: قوله تعالى: «قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما»، أي فلما نكل بنو إسرائيل عن طاعة الله ومتابعة رسول الله موسى ﷺ، حرضهم رجلان لله عليهما نعمة عظيمة، وهما ممن يخاف أمر الله ويخشى عقابه؛ وقرأ بعضهم: «قال رجلان من الذين يخافون»، أي ممن لهم مهابة وموضع من الناس، ويقال إنهما يوشع بن نون وكالب بن يوفتا، قاله ابن عباس ومجاهد وعكرمة وعطية والسدي والربيع بن أنس، وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله. انتهى من المرجع نفسه

قال أبو الفتح: قلت: قوله تعالى: «قال رجلان من الذين يخافون أنعم الله عليهما»، رأيت فيه غير ما ذكر:

فقد يكون المراد ب «رجلان»، رجلين من بني إسرائيل من الذين خافوا من الدخول على العمالقة، إذ أن قولهما: «ادخلوا عليهم الباب»، لا يعني أنهما دخلاه دون قومهم، بل بقيا على خوفهما، وأمرا غيرهما بالدخول، ولا بسالة ولا إقدام في ذلك.

وقد يراد بهما موسى وأخوه هارون عليهما السلام، وهذا ما رجح عندنا لقرائن نعرضها في التالي:

أولا: جاء في القرآن الكريم على لسان موسى عليه السلام قوله تعالى: «قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيرا للمجرمين». القصص16

بل وذكر سبحانه وتعالى موسى وأخاه هارون عليهما السلام، في سياق ذكر بعض الأنبياء والمرسلين الذين أنعم الله عليهم، وذلك في سورة مريم، فقال تعالى: « واذكر في الكتاب موسى إنه كان مخلصا وكان رسولا نبيئا، وناديناه من جانب الطور الايمن وقربناه نجيا، ووهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيئا، واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيئا وكان يامر أهله بالصلاة والزكاة، وكان عند ربه مرضيا، واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيئا، ورفعناه مكانا عليا، أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيئين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل وممن هدينا واجتبينا، إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا». مريم51 - 58

ثانيا: فإن قلت: وكيف ينعت الله تعالى موسى وهارون عليهما السلام، وهما نبيان، برجلين؟

قلت: ورد نعت الأنبياء والمرسلين بالرجل والرجال في الذكر الحكيم، ومن ذلك قوله تعالى:

«أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا ولعلكم ترحمون». الأعراف62

ومنه قوله تعالى: «وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا يوحى إليهم من أهل القرى». يوسف109

ثالثا: فإن قلت: فإذا ذهبت إلى أن المراد بالرجلين موسى وهارون عليهما السلام، فقد لزم من ذلك وصفهما بالخوف، ودخولهما ضمن الذين يخافون؟

قلت: سبق أن أسلفنا جواز الخوف من غير الله عز وجل على سبيل الحيطة والحذر، فلا يضر ذلك بهما شيئا، إذ هو طبع البشر، وقد يكون محمودا في بعض الأوقات، لأن الذي يخاف الشيء يتقيه بما تيسر له من أسباب، بل هو في جانب الثناء عليهما ورفع قدرهما، إذ جرؤا على الدخول رغم خوفهما، وإلا لما شرعت صلاة الخوف في شريعتنا السمحة.

رابعا: وينتصر لما ذهبنا إليه، قول موسى بعدها: «قال رب إني لا أملك إلا نفسي، وأخي، فافرق بيننا وبين القوم الفاسقين». المائدة27

فلو كان المراد رجلين غيرهما لزادهما في الاستثناء وما أبقى، فتدبر، والله أعلم.

وقد اخترنا الثاني، رغم توافق التأويلين معا، لما أوضحناه من أن الخوف يكون من الله اتقاء عذابه، ويكون من ناره، وقانا الله حرها بفضله ومنته

الفصل التاسع: في قوله تعالى على لسان هابيل: «إني أخاف الله رب العالمين»

قال تعالى: «واتل عليهم نبأ ابني آدم بالحق إذ قربا قربانا فتقبل من أحدهما ولم يتقبل من الآخر، قال لأقتلنك، قال إنما يتقبل الله من المتقين، لئن بسطت إلي يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك، إني أخاف الله رب العالمين، إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار، وذلك جزاء الظالمين، فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين، فبعث الله غرابا يبحث في الأرض ليريه كيف يواري سوءة أخيه، قال يا ويلتى أعجزت أن أكون مثل هذا الغراب فأواري سوءة أخي فأصبح من النادمين». المائدة 29 -33

قال ابن كثير: وروى العوفي عن ابن عباس قال من شانهما أنه لم يكن مسكين يتصدق عليه، وإنما كان القربان يقربه الرجل؛ فبينا ابنا آدم قاعدان إذ قالا: لو قربنا قربانا، وكان الرجل إذا قرب قربانا فرضيه الله أرسل إليه نارا فتأكله، وإن لم يكن رضيه الله خبت النار، فقربا قربانا، وكان أحدهما راعيا وكان الآخر حراثا، وإن صاحب الغنم قرب خير غنمه وأسمنها، وقرب الآخر بعض زرعه، فجاءت النار فنزلت بينهما فأكلت الشاة وتركت الزرع، وإن ابن آدم قال لأخيه: أتمشي في الناس وقد علموا أنك قربت قربانا فتقبل منك ورد علي، فلا والله لا ينظر الناس إلي وأنت خير مني، فقال: لأقتلنك، فقال له أخوه: ما ذنبي، إنما يتقبل الله من المتقين. رواه ابن جرير؛ فهذا الأثر يقتضي أن تقريب القربان، كان لا عن سبب ولا عن تدارئ في امرأة كما تقدم عن جماعة ممن تقدم ذكرهم، وهو ظاهر القرآن. انتهى من تفسير ابن كثير

ولهذا ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا تواجه المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار، قالوا: يا رسول الله هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: إنه كان حريصا على قتل صاحبه». انتهى من المرجع نفسه

وقوله: «إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار وذلك جزاء الظالمين»، قال ابن عباس ومجاهد والضحاك وقتادة والسدي في قوله: «إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك»، أي بإثم قتلي وإثمك الذي عليك قبل ذلك. قاله ابن جرير. وقال آخرون: يعني بذلك: إني أريد أن تبوء بخطيئتي فتتحمل وزرها وإثمك في قتلك إياي؛ وهذا قول وجدته عن مجاهد، وأخشى أن يكون غلطا، لأن الصحيح من الرواية عنه خلافه، يعني ما رواه سفيان الثوري

عن منصور عن مجاهد: «إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك»، قال: بقتلك إياي، «وإثمك»، قال: بما كان منك قبل ذلك، وكذا رواه عيسى بن أبي نجيح عن مجاهد بمثله، وروى شبل عن ابن أبي نجيح عن مجاهد: «إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك»، يقول: إني أريد أن يكون عليك خطيئتي ودمي فتبوء بهما جميعا..

وأما ابن جرير فقال: والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن تاويله: إني أريد أن تنصرف بخطيئتك في قتلك إياي، وذلك هو معنى قوله: «إني أريد أن تبوء بإثمي»، وأما معنى: «وإثمك»، فهو إثمه، يعني قتله، وذلك معصية الله عز وجل في إعمال سواه، وإنما قلنا ذلك هو الصواب، لإجماع أهل التأويل عليه، وأن الله عز وجل أخبرنا أن كل عامل فجزاء عمله له أو عليه، وإذا كان هذا حكمه في خلقه، فغير جائز أن تكون آثام المقتول مأخوذا بها القاتل، وإنما يؤخذ القاتل بإثمه بالقتل المحرم وسائر آثام معاصيه التي ارتكبها بنفسه، دون ما ركبه قتيله.هذا لفظه. انتهى من المرجع نفسه

قال أبو الفتح: لعل هابيل أغرى قابيل بقتله بما أوتي من أسلوب الإثارة ما لم يوت قابيل

وقد تبين لي من حوارهما، والله أعلم، أن قابيل كان شديدا مندفعا، لكن لا يحتم ذلك أنه من السهل عليه قتل أخيه، ودليل ذلك أنه ندم على قتله بعد ذلك، وتبين لي أن هابيل كان أقل بأسا من قابيل، إلا أنه أوتي طول اللسان وحلاوة البيان، وكان أذكى من أخيه، بل كان عارفا بطبعه وتسرعه وشدة غضبه

ففعل كل ما في وسعه ليقتل على يد أخيه، فأثار حفيظته، وأفلح في ذلك؛ بل إنه أوحى إليه في طيات كلامه بأن يبسط إليه يده من أجل قتله، وكأنه يعلمه مايفعل، ويبين له بصريح العبارة أنه لن يدافع عن نفسه، ليس احتراما لما تفرضه الأخوة على الأخ تجاه أخيه، ولكن من أجل أن يرتكب كبيرة القتل فيكون من أصحاب النار

فماذا لو قال هابيل كلاما غير هذا، يهدئ به من روع أخيه؟ كأن يقول لما هدده بالقتل: لا تقتلني فإنني أخوك

أليس لو كان شيء من ذلك ما قتل؟

أليس الذي أوحى بالقتل وحرض عليه هابيل؟

والكل يعلم أن آدم وأبناءه كانوا حديثي عهد بالدنيا، وما أشد يقين هابيل بوجود الجنة ونعيمها، فربما أراد أن يكون أخوه سببا لأن يخرج من الدنيا وضيقها إلى الآخرة وسعتها، والله أعلم

ونظير ما ذكرناه من إثارة الغضب عند النصح من طرف الناصح، نذكره في حوار الرجل لصاحب الجنتين في سورة الكهف: «قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا، لكنا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحدا، ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله، إن ترن أنا أقل منك مالا وولدا فعسى ربي أن يوتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا». الكهف36 -40

يقول أبو محمد بن عطية الأندلسي: هذا الترجي بعسى، يحتمل أن يريد به الدنيا، ويحتمل أن يريد به الآخرة، وتمني ذلك في الآخرة أشرف مقطعا، وأذهب مع الخير والصلاح، وأن يكون ذلك يراد به الدنيا أذهب في نكاية المخاطب، وأشد إيلاما لنفسه؛ والحسبان: العذاب، كالبرد والصر ونحوه، واحد الحسبان: حسبانة، وهي المرامي من هذه الأنواع المذكورة، وهي أيضا سهام ترمى دفعة بآلة لذلك، والصعيد: وجه الأرض، والزلق: الذي لا تثبت فيه قدم، يعني أنه تذهب أشجاره ونباته، ويبقى أرضا قد ذهبت منافعها، حتى منفعة المشي فيها، فهي وحل لا تنبت ولا تثبت فيه قدم؛

والغور: مصدر يوصف به الماء المفرد والمياه الكثيرة، كقولك: رجل عدل، وامرأة عدل ونحوه، ومعناها: ذاهبا في الأرض لا يستطاع تناوله، وقرأت فرقة: غورا، وقرأت فرقة: غورا، بضم الغين، وقرأت فرقة غؤرا: بضم الغين وهمز الواو، وغور، مثل نوح، يوصف به الواحد والجمع والمذكر والمؤنث، ومنه قول الشاعر:

تظل جيادها نوحا عليه   مقلدة أعنتها صفوفا

وهذا كثير وباقي الآيتين بين. انتهى من المحرر الوجيز

قال أبو الفتح الجعفي: قلت: قوله تعالى: «إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك فتكون من أصحاب النار»، المراد منه ما كانت عليه شريعة آدم عليه السلام، فلا داعي لتأويله على غير وجهه، إذ كل من ذهب إلى تأويله بخلاف ذلك أخذه بمأخذ شريعة سيدنا محمد ﷺ.

ولا يخفى على أحد اختلاف الشرائع فيما بينها حسب الإنسان والزمان والمكان، ألا ترى إلى شريعة موسى عليه السلام في القتل، كيف جعلت من قتل نفسا بغير نفس فكأنما قتل الناس جميعا.

مع الإشارة إلى أن الله تعالى ذكر شريعة القتل عند اليهود، بعد سرد ما حدث لقابيل وهابيل، فقال سبحانه: «من أجل ذلك، كتبنا على بني إسرائيل أنه من قتل نفسا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا، ومن أحياها فكأنما أحيى الناس جميعا». المائدة34

أما الشريعة المحمدية فبخلاف ما سبق، فقد قال الله تعالى: «ومن يقتل مومنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما». النساء92

ونخلص بعد هذا، إلى أن هابيل قال لأخيه: إني أريد أن تقتلني فتتحمل إثم قتلي والآثام التي اقترفتها في حياتك، وترفع عني جميع الآثام التي اقترفتها في حياتي، حتى أرجع إلى ربي مغفورا لي، فأدخل الجنة مع الداخلين

أما قوله تعالى: «إني أخاف الله رب العالمين»، ففيه ثلاثة أمور:

الأول: المراد بخوف الله هنا خوف ناره، لذكره إياها في سياق كلامه.

الثاني: يجوز خوف الله في شريعتهم بدل خشيته لعدم اكتمال الشريعة.

الثالث: وردت العبارة مرتين في القرآن الكريم: مرة على لسان هابيل، ومرة على لسان الشيطان لعنه الله، قال تعالى: «كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك إني أخاف الله رب العالمين». الحشر16

وفي ذلك إشارة غير لطيفة إلى إغواء هابيل لأخيه، وذلك عمل من عمل الشيطان، فلذلك استوت العبارة بينهما، والله أعلم

الفصل العاشر: في قوله تعالى: «ليعلم الله من يخافه بالغيب»

«يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشيء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب، فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم». المائدة96

قال ابن كثير: وقال مجاهد: «تناله أيديكم»، يعني صغار الصيد وفراخه، «ورماحكم»، يعني كباره، وقال مقاتل ابن

حيان: أنزلت هذه الآية في عمرة الحديبية، فكانت الوحش والطير والصيد تغشاهم في رحالهم، لم يروا مثله قط فيما خلا، فنهاهم الله عن قتله وهم محرمون، «ليعلم الله من يخافه بالغيب»، يعني أنه تعالى يبتليهم بالصيد يغشاهم في رحالهم، يتمكنون من أخذه بالأيدي والرماح، سرا وجهرا لتظهر طاعة من يطيع منهم في سره أو جهره، كما قال تعالى: «إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير»، وقوله ها هنا: «فمن اعتدى بعد ذلك»، قال السدي وغيره: يعني بعد هذا الإعلام والإنذار والتقدم، «فله عذاب أليم»، أي لمخالفته أمر الله وشرعه. انتهى من تفسير ابن كثير

قلت: تفردت هذه الآية الكريمة بما جاء فيها من قوله عز وجل: «ليعلم الله من يخافه بالغيب»، ومرد ذلك إلى أن الأمر يتعلق بابتلاء الله تعالى للمومنين، هذا الابتلاء مصحوب في سياق القرآن الكريم بقوله تعالى يتوعد المعتدين والمخالفين: «فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم»، لذلك تبين أن المراد بالخوف هنا خوف عذاب الله تعالى، لذلك لا يستقيم لفظ الخشية في هذا المقام، لأن معناه غير ذلك.

ونخلص بعد كل ما أسلفنا إلى أن الملائكة تخاف الله تعالى، وقد ورد الإشفاق من الخشية في القرآن الكريم بشأنهم مرة واحدة سنتناوله في باب الخشية إن شاء الله تعالى.

وأما الجن والشياطين، بما فيهم إبليس لعنه الله تعالى، فليس لهم سوى الخوف في القرآن الكريم

وأما باقي ما خلق الله تعالى من غير المكلفين فلهم الخوف من الله لا غير، ومتى غشيتهم الخشية تصدعوا من جلال الله تعالى وهيبته.

وأما بنو آدم، فقد أجاز لهم الله تعالى الخوف من غيره على سبيل الحيطة والحذر، وأوجب عليهم خوف يوم الآخرة وعذاب النار، ولم يجز لهم الخوف العقائدي ممن يوالون من دون الله تعالى.

واختص سبحانه من عباده الصالحين بالخشية وليس بالخوف.

ومن هنا ننبه إخواننا الأعزاء، السالكين معنا طريق العارفين الأمناء، السائلين عن أساليب المخاطبة والإذعان، وسبل المناجاة بإمعان وامتنان، ألا يجانبوا دعاءهم الباري عز وجل بأن يجنبهم عذاب «يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون، إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا». النبأ28

ويستحضروا خشيتهم من الجبار، ويظهروا خوفهم من ناره، لأن خوفه يكون اتقاء ناره، وخشيته تكون إكراما لوجهه الكريم

الفصل الحادي عشر: في الرد على من ادعى أن من العارفين من اذا استأنس بالله انتفى عنه الخوف والرجاء

يقول أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى: اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحتراقه بسبب توقع مكروه في الاستقبال، وقد ظهر هذا في بيان حقيقة الرجاء، ومن أنس بالله وملك الحق قلبه، وصار ابن وقته مشاهدا لجمال الحق على الدوام، لم يبق له التفات إلى المستقبل، فلم يكن له خوف ولا رجاء، بل صار حاله أعلى من الخوف والرجاء، فإنهما زمانان يمنعان النفس عن الخروج إلى رعوناتها، وإلى هذا أشار الواسطي، حيث قال: الخوف حجاب بين الله تعالى وبين العبد؛ وقال أيضا: إذا ظهر الحق على السرائر، لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا لخوف؛ وبالجملة، فالمحب إذا شغل قلبه في مشاهدة المحبوب بخوف الفراق، كان ذلك نقصا في الشهود، وإنما دوام الشهود غاية المقامات. انتهى من الإحياء

قلت: هذا الذي ذهب إليه الإمام الغزالي، بما هو بين من ظاهر عبارته، من أن من استأنس بالله تعالى ولم يغب عنه جمال الحق على الدوام، انتفى عنه الخوف والرجاء، لأن الخوف توقع المكروه في الاستقبال، وما دام قد جاوز الالتفات إلى المستقبل فلم يعد يخاف منه.

قلت: هذا الذي ذهب إليه الغزالي، لا نقره عليه ولا نوافقه الرأي فيه؛ بل نرى أن الخوف لا زم للعبد لا يحيد عنه، ولو بلغ ما بلغ من مقامات في الترقي إلى معرفة مولاه، كيف وأن الله تعالى أثنى على الخائفين، وأعني من عذاب الآخرة، فقال تعالى: «يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا». الإنسان07

وقال: «تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون». السجدة16

كما ذم الله تعالى الذين لا يخافون الآخرة، فقال تعالى: «كأنهم حمر مستنفرة فرت من قسورة، بل يريد كل امرئ منهم أن يوتى صحفا منشرة، كلا بل لا يخافون الآخرة.» المدثر 49 - 52

فإن قيل: ربما عني الإمام الغزالي رحمه الله ، أناسا بلغوا من شدة طاعتهم لله تعالى وذكرهم له ما لم يبلغه غيرهم، فلم يعد لهم خوف من شيء بعد ذلك، قلت: مهما بلغ المرء من منازل بفضل طاعاته وعباداته، فلن يبلغ منزلة خير الخلق ﷺ، وهو عليه الصلاة والسلام مافتئ يخاف عذاب الله تعالى ويرجو رحمته.

ويقول الغزالي نفسه، مؤكدا ما ذهبنا إليه: فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وربه، ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا أخوفكم لله»، وكذلك قال الله تعالى: «إنما يخشى الله من عباده العلماء». فاطر28، ثم إذا كملت المعرفة أورثت جلال الخوف واحتراق القلب، ثم يفيض أثر الحرقة من القلب على البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات. انتهى من المرجع نفسه

فهاهو رسول الله ﷺ، أكمل الخلق وأتقاهم على الإطلاق، كان أخوف الخلق على حسب تعبير الغزالي في سياقه، فماذا بقي لغيره حتى ينسى ويكون من الآمنين.

حدثني أبو عمرو محمد بن جعفر بن محمد بن مطر، وأنا سألته، قال: حدثني أبو محمد جعفر بن أحمد بن نصر الحافظ، حدثنا أبو كريب، حدثنا معاوية بن هشام عن شيبان عن أبي إسحاق عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه لرسول الله ﷺ: أراك قد شبت، قال: «شيبتني هود والواقعة وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت». رواه الحاكم في المستدرك

ولا أرد ما قاله الغزالي، لأبين أنه يدعي أن هناك من الناس من بلغ درجة لم يبلغها رسول الله ﷺ، أو أنه يتناقض في قوله، فإن الإمام أرفع من أن يكون كذلك، بل هو حجة الإسلام ومقصد الأنام والواقف على أحكام الشرعة، وموضح سبل المعرفة للراغبين في السير إلى مولاهم عز وجل دون رجعة.

وما جرؤنا على أستاذنا، سوى لما يقتضيه العلم من مساجلة وجدال وحجج في المقال بالقرينة والمثال، ولو كان حيا لأعجبه منا ذلك، ولو أننا لسنا هنالك، فجزاه الله عنا وعن أمة الإسلام خير الجزاء.

وإنما خلط الغزالي رحمه الله تعالى، كغيره من كثير من الجهابذة والكمل بين الخوف والخشية، فلم يستقم لهم قول في الكلام عنهما، وذلك قصدنا من هذا الكتاب المختصر الذي رأينا فيه، بتوفيق من الله عز وجل، ما عزب عن زمرة من الأفاضل، ولا عجب في ذلك، إذ أن لكل جواد كبوة ولكل عالم هفوة، ولا كمال إلا لله.

فإن قلت: أليس الحديث الذي ساقه الغزالي آنفا يشهد بخوف رسول الله ﷺ من الله تعالى، وقد ذهبت إلى أن الخوف يكون من الآخرة وليس من الله تعالى، بل الأولى خشية الله وليس مخافته.

قلت: حديث: «أنا أخوفكم لله»، الذي أورده الغزالي في كلامه، لم يخرجه العلامة زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي رحمه الله، ضمن ما خرج من أحاديث الإحياء، ولم أعثر له على أصل بهذا اللفظ، وإنما الثابت حديث عَائِشَةَ قَالَتْ: «صَنَعَ النَّبِيُّ ﷺ شَيْئًا، فَرَخَّصَ فيه، فَتَنَزَّهَ عَنْهُ قَوْمٌ، فَبَلَغَ ذلكَ النَّبيَّ ﷺ، فَخَطَبَ، فَحَمِدَ اللهَ، ثُمَّ قَالَ: مَا بَالُ أَقْوَام يَتَنَزَّهُونَ عَنِ الشَّيْءِ أَصْنَعه؟ فَوَاللهِ إِنِّي لأَعْلَمهمْ بِاللهِ، وَأَشَدهم لَه خَشْيَةً». أخرجه البخاري

وفي الحديث حجة على ما ذهبنا إليه، ولعل الإمام ساق الحديث من ذاكرته ولم يفرق بين الخوف والخشية فيه، ومما يزيد الأمر صوابا:

أَخْبَرَنَا هَنَّاد بن السَّرِيِّ عَن ابْن الْمُبَارَكِ عَن الْمَسْعُودِيِّ عَنِ محَمَّد بْن عَبْد الرَّحْمَنِ عَنْ عِيسَى بْن طَلْحَةَ عَنْ أَبِي هرَيْرَة عَنْ النَّبيِّ ﷺ قَالَ: « لَا يَلِجِ النَّارَ رَجل بَكَى مِنْ خَشْيَةِ اللهِ تَعَالَى حَتَّى يَعودَ اللَّبَن فِي الضَّرْعِ، وَلَا يَجْتَمِع غبَار فِي سَبِيلِ اللهِ وَدخَان نَارِ جَهَنَّمَ». رواه النسائي في المجتبى

وأما قول الواسطي رحمه الله تعالى: الخوف حجاب بين الله تعالى وبين العبد. انتهى، فلا يكون ذلك سوى إن عني الواسطي شدة الخوف بالمقدار الذي يجاوز ما أمرت به الشريعة، فلا غرو أن ذلك عمل من لا معرفة له بالله، بل يجب أن يسعى المومن بين الخوف والرجاء سعيه بين الصفا والمروة، ولا يستكين إلى واحد منهما حتى يحقق الاعتدال في شريعة الوسط المنزلة على الأمة الوسط.

كما استدل الغزالي رحمه الله تعالى بحديث: «رأس الحكمة مخافة الله»، ولا يكون ذلك حجة على حساب ما ذكرنا، إذ قال العلامة زين الدين العراقي فيه: رواه أبو بكر بن لال الفقيه، في مكارم الأخلاق، والبيهقي في الشعب، وضعفه من حديث ابن مسعود، ورواه في دلائل النبوة من حديث عقبة بن عامر ولا يصح أيضا.

ورد في كتاب الختم للحكيم الترمذي ما نصه:

قال له قائل: فهل يخاف المحدثون سوء العاقبة؟

قال: نعم، ولكن خوف ذهول وقلق، ويكون ذلك كالخطرات ثم يمضي، فإن الله تعالى لا يحب أن يكدر عليهم منته.

قال له قائل: في أي وقت يكون ذلك أعمل فيهم؟

قال: كلما لا حظوا جلال الله، ثم لاحظوا مشيئته، وذكروا سابق علمه فيهم، ذهلت منهم القلوب والنفوس، فإذا لاحظوا حظوظهم من الله تعالى، التي خرجت لهم من الرأفة والرحمة والمحبة سكنوا، فذلك زمام هذه الأشياء، فلولا بهتهم في شأن العاقبة وذهولهم، لكانت النفوس في هذه الحظوظ التي نالوها طلعة، ألا ترى الصبي العاقل يبره أقرباؤه وعشيرته، وهو على تناول برهم منقبض عنهم: يهابهم ويحتشم من الانبساط، فإذا عاين أبويه انبسط ورفع الحشمة، واستبد واجترأ، فهل ذلك إلا بمعرفته بأبويه، وبما عاين من رأفتهم به ورحمتهم عليه، وبما أبدوا له من مكنون صدورهم من المحبة؟ فكفى بهذا دلالة من شأن الطفل تعتبر به.

ولولا أن مع المؤمنين نفوسا شهوانية، إذا اطلعوا على ما لهم عند مليكهم من الرأفة والمحبة والرحمة والمجد الرفيع فاستبدوا واجترؤوا وأفسدوا سبيلهم، ورفضوا العبودية، لكانوا يبشرون بذلك، ألا ترى من آداب الملوك، كيف يعاملون

خدمهم، ترى الخادم يحل من الملك، من أجل أدبه وحظوه محل الولد، فيكتم ذلك عنه ويطوي خبره وينقبض عنه، كي لا يفسد ولا تنقطع عنه هيبته، فإذا أدبه وراض نفسه وطالت صحبته، فوض إليه أموره وأفشى عنده أسرارا لم يكن يطلعه عليها قبل ذلك، وأبدى له محبته وأنزله من نفسه منزلة الأحرار، وإنما طوى الله العواقب عن المؤمنين نظرا لهم، كي لا تستبد نفوسهم ولا يأخذها الأشر والبطر بما أعطاهم من منه. انتهى من الختم

الفصل الثاني عشر: في بكائه ﷺ مع ذكر أنواع البكاء عامة

وأمَّا بكاؤه ﷺ، فكان مِن جنس ضحكه، لم يكن بشهيقٍ ورفع صوت كما لم يكن ضحكه بقهقهة، ولكن كانت تدمَع عيناه حتى تَهْملا، ويُسمع لِصدره أزيز؛ وكان بكاؤه تارة رحمة للميت، وتارة خوفاً على أمته وشفقة عليها، وتارة من خشية الله، وتارة عند سماع القرآن، وهو بكاء اشتياق ومحبة وإجلال، مصاحب للخوف والخشية؛ ولما مات ابنه إبراهيم، دمعت عيناه وبكى رحمة له، وقال: «تَدْمَع العَيْن، وَيَحْزَن القَلْب، ولا نَقُول إلا مَا يرضِي رَبَّنا، وَإِنَّا بِكَ يَا إبْرَاهِيم لَمَحْزونونَ»؛ وبكى لما شاهد إحدى بناته وَنَفْسها تَفيض، وبكى لما قرأ عليه ابن مسعود سورة النساء وانتهى فيها إلى قوله تعالى: «فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كل أمَّة بِشَهيد وَجِئْنَا بِكَ عَلَىَ هَؤلاءِ شَهيداً». النساء41

وبكى لما مات عثمان بن مظعون، وبكى لما كَسَفت الشَّمس، وصلى صلاة الكسوف، وجعل يبكي في صلاته، وجعل ينفخ ويقول: «رَبِّ أَلَم تَعدْني ألاَّ تُعَذِّبَهُم وَأنَا فِيهِم وهم يَستغفرونَ، وَنَحن نَسْتَغْفِرك»، وبكى لما جلس على قبر إحدى بناته، وكَانَ يَبكي أحياناً في صلاة اللَّيل.

والبكاء أنواع، أحدها: بكاء الرحمة والرقة، والثاني: بكاء الخوف والخشية، والثالث: بكاء المحبة والشوق، والرابع: بكاء الفرح والسرور، والخامس: بكاء الجَزَع من ورود المؤلم وعدم احتماله، والسادس: بكاء الحزن؛والفرق بينه وبين بكاء الخوف، أن بكاء الحزن يكون على ما مضى من حصَول مكروه، أو فوات محبوب، وبكاء الخوف يكون لمَا يتوقع في المستقبل مِن ذلك، والفرق بين بكاء السرور والفرح، وبكاء الحزن، أن دمعة السرور باردة، والقلب فرحان، ودمعة الحزن حارة، والقلب حزين، ولهذا يقال لما يفرح به: هو قرة عَيْنٍ، وأقرَّ الله به عينَه، ولما يحزن: هو سخينة العين، وأسخن الله عينَه به.

والسابع: بكاء الخور والضعف.

والثامن: بكاء النفاق، وهو أن تدمعَ العين والقلب قاس، فيظهر صاحبه الخشوع، وهو من أقسى الناس قلباً

والتاسع: البكاء المستعار والمستأجر عليه، كبكاء النائحة بالأجرة، فإنها كما قال عمر بن الخطاب: تَبِيع عَبْرتَها، وَتَبْكي شَجْوَ غَيرها.

والعاشر: بكاء الموافقة، وهو أن يرى الرجُلُ الناسَ يبكون لأمر ورد عليهم، فيبكي معهم، ولا يدري لأي شيء يبكون، ولكن يراهم يبكون، فيبكي.

وما كان من ذلك دمعاً بلا صوت، فهو بكى، مقصور، وما كان معه صوت، فهو بكاء، ممدود على بناء الأصوات، وقال الشاعر:

بَكَتْ عَيْنِي وَحقَّ لهَا بكَاهَا وَمَا يغْنِي الْبكَاء وَلاَ الْعَوِيل

وما كان منه مستدعىً متكلفاً، فهو التباكي، وهو نوعان: محمود ومذموم، فالمحمود: أن يستجلَب لِرقة القلب، ولخشية الله، لا للرياء والسمعة، والمذموم: أن يجتلب لأجل الخلق، وقد قال عمر بن الخطاب للنبي ﷺ، وقد رآه يبكي هو وأبو بكر في شأن أسارى بدر: أخبرني ما يبكيك يا رسول الله؟ فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد تباكَيت لبكائكما، ولم ينكر عليه ﷺ.

وقد قال بعض السلف: ابكوا مِن خشية الله، فإن لم تبكوا، فتباكوا. انتهى من زاد المعاد

الفصل الثالث عشر: في صفة صلاة الخوف وأحكامها

وكان من هديه ﷺ، في صلاة الخوف، أن أباحَ اللّهُ سبحانَه وتعالى قصرَ أركانِ الصلاة وعددها، إذا اجتمع الخوفُ والسفرُ، وقصرَ العدد وحدَه إذا كان سفرٌ لا خوف معه، وقصرَ الأركان وحدَها إذا كان خوفٌ لا سفرَ معه، وهذا كان من هديه ﷺ، وبه تُعلم الحِكمة في تقييد القصر في الآية بالضرب في الأرض والخوف.

وكان من هديه ﷺ في صلاة الخوف، إذا كان العدوّ بينهَ وبين القبلة، أن يَصُفَّ المسلمين كلَّهم خلفَه، ويكبِّرُ ويكبرون جميعاً، ثم يركع فيركعون جميعاً، ثم يرفعُ ويرفعون جميعاً معه، ثم ينحدِرُ بالسجود والصفُّ الذي يليه خاصة، ويقوم الصفُّ المؤخَّر مواجِهَ العدُوِّ، فإذا فرغ من الركعة الأولى، ونهَض إلى الثانية، سجدَ الصفُّ المؤخَّر بعد قيامه سجدتين، ثم قاموا، فتقدَّموا إلى مكان الصفِّ الأول، وتأخَّر الصفُّ الأولُ مكانَهم، لتحصُلَ فضيلةُ الصفِّ الأول للطائفتين، وليُدرِكَ الصفُّ الثاني مع النبي ﷺ السجدتين في الركعة الثانية، كما أدرك الأول معه السجدتين في الأولى، فتستوي الطائفتانِ فيما أدركوا معه، وفيما قَضَوْا لأنفسهم، وذلك غايةُ العدل، فإذا ركع، صنع الطائفتان كما صنعوا أوَّل مرة، فإذا جلس للتشهد، سجد الصفُّ المؤخَّر سجدتين، ولحقوه في التشهد، فيسلِّم بهم جميعاً.

وإن كان العدُو في غير جهة القبلة، فإنَّه كان تارةً يجعلُهم فِرقتين: فِرقةً بإزاء العدوِّ، وفِرقةً تُصلي معه، فتُصلي معه إحدى الفرقتين ركعةً، ثم تنصرِف في صلاتها إلى مكان الفرقة الأخرى، وتجيءُ الأخرى إلى مكان هذه، فتُصلي معه الركعة الثانية، ثم تُسلم، وتقضي كلُّ طائفة ركعةً ركعةً بعد سلام الإمام.

وتارة كان يُصلي بإحدى الطائفتين ركعة، ثم يقوم إلى الثانية، وتقضي هي ركعة وهو واقف، وتُسلم قبل ركوعه، وتأتي الطائفة الأخرى، فتصلي معه الركعة الثانية، فإذا جلس في التشهد، قامت، فقضت ركعةً وهو ينتظرها في التشهد، فإذا تشهدت، يُسلم بهم.

وتارة كان يُصلي بإحدى الطائفتين ركعتين، فتُسلم قبله، وتأتي الطائفة الأخرى، فيُصلي بهم الركعتين الأخيرتين، ويُسلم بهم، فتكون له أربعاً، ولهم ركعتين ركعتين.

وتارة كان يُصلي بإحدى الطائفتين ركعتين، ويسلم بهم، وتأتي الأخرى، فتصلي بهم ركعتين، ويُسلم فيكون قد صلى بهم بكلِّ طائفة صلاة.

وتارة كان يصلي بإحدى الطائفتين ركعةَ، فتذهب ولا تقضي شيئاً، وتجيء الأخرى، فيُصلي بهم ركعة، ولا تقضي شيئاً، فيكون له ركعتان، ولهم ركعة ركعة، وهذه الأوجه كُلُها تجوز الصلاة بها. انتهى من المرجع نفسه

الفصل الرابع عشر: في صفة صلاة الكسوف وأحكامها

قال ابن قيم الجوزية: لما كَسَفَتِ الشَّمسُ، خرجَ ﷺ إلى المسجد مُسرعاً فزعاً يجُرُّ رداءه، وكان كسُوفُها في أوَّل النهار على مقدار رُمحين أو ثلاثة من طلوعها، فتقدَم، فصلى ركعتين، قرأ في الأولى بفاتحة الكتاب، وسورة طويلة، جهر بالقراءة، ثم ركع، فأطال الركوع، ثم رفع رأسه من الركوع، فأطال القيام وهو دون القيام الأول، وقال لما رفع رأسه: «سَمعَ اللهُ لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا لَكَ الحَمْد»، ثم أخذ في القراءة، ثم ركع، فأطال الركوع وهو دون الركوع الأول، ثم رفع رأسه من الركوع، ثم سجد سجدة طويلة فأطال السجود، ثم فعل في الركعة الأخرى مثلَ ما فعل في الأولى، فكان في كُلِّ ركعة رُكوعان وسجودان، فاستكمل في الركعتين أربعَ ركعات وأربعَ سجدات، ورأى في صلاته تلك الجنة والنار، وهمَّ أن يأخذ عُنقوداً من الجنة، فيُريَهم إياه، ورأى أهل العذاب في النار، فرأى امرأة تخدشُها هِرَّةٌ ربطتها حتى ماتت جُوعاً وعطشاً، ورأى عمرو بن مالك يجر أمعاءَه في النار، وكان أولَ من غيَّر دين إبراهيم، ورأى فيها سارقَ الحاج يُعذَب، ثم انصرف، فخطب بهم خطبة بليغة، حُفظَ منها قوله: «إنَّ الشَّمْسَ وَالقَمَرَ آيَتَان من آيات الله لا يَخْسفَان بمَوْت أحَد، وَلا لِحَياته، فإذا رَأيْتُم ذَلكَ، فادعوا اللهَ وكَبروا، وصَلُوا، وتَصدَقوا يا أُمَّةَ مُحمَّد، واللهِ مَا أحَدٌ أغيَرَ منَ الله أنْ يزنيَ عَبدُهُ، أوْ تَزْنيَ أَمَته، يا أمَّة محَمَّد، والله لو تَعلَمون ما أعلَم لَضحكتم قَليلاً، وَلَبَكَيْتمْ كَثيرا».

وقال: «لَقَدْ رَأيتُ في مَقَامي هذا كُلَّ شَيء وُعدتُم به، حَتَّى لَقَدْ رأيْتُني أُريد أن آخذَ قطفاً من الجنة حينَ رأيتُمُوني أتقدَمُ، وَلَقَد رأيتُ جَهَنَّم يَحطم بَعْضُها بَعْضَاً حينَ رأيْتمُوني تَأَخَّرتُ»، وفي لفظ: «وَرَأَيت النَّارَ فلم أرَ كاليوم مَنْظراً قَطّ أفْظَعَ منها، ورَأيْت أكثَر أهلِ النار النِّسَاءَ»، قالُوا: وَبِمَ يا رسول الله؟ قال: «بكُفرهنَّ». قيل: أيكفُرنَ بالله؟ قال: «يَكْفرنَ العَشيرَ، وَيَكفرنَ الإحسَان، لو أحسَنتَ إلى إحْدَاهنَّ الدَّهْرَ كُلَّه، ثُمَّ رأت منكَ شَيئاً، قالت: مَا رَأيْتُ منكَ خَيراً قطّ».

ومنها: «ولَقَدْ أُوحي إليَّ أنكُم تُفتَنون في القُبور مثلَ أو قَريباً منْ فتْنَة الدَّجَال، يُؤْتى أحَدُكُم فيُقال له: ما علْمُك بهَذا الرَّجُل؟ فَأمَّا المُؤمن»، أو قال: «المُوقن، فيقول: مُحَمَّد رَسُول الله، جاءنَا بالبيِّنَات وَالهُدَى، فأجَبنا، وآمنَّا، واتَّبَعنَا، فيُقال لَهُ: نم صَالحاً فَقَدْ عَلمنَا إن كنتَ لمؤمنا، وأمَّا المُنافق»، أوْ قَالَ: «المُرْتابُ، فيَقُول: لا أدْري، سمعْت النَّاسَ يَقولُون شَيئاً، فقلتُه». انتهى من المرجع نفسه

الفصل الخامس عشر: في حقيقة الخوف وأنواع الخائفين

حقيقة الخوف:

أمر المولى عباده بالتوحيد، فقالوا: لا إله إلا الله، فظن منهم من ظن أن التوحيد عبادة الله وحده، فعبدوه ما استطاعوا، لكنهم سألوا غيره وتوكلوا على سواه، فأشركوا به في السؤال والتوكل، وهم يعلمون أنه سبحانه قال: «وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مومنين». المائدة25، وأن النبي ﷺ قال: «إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء،

لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف». رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح

فتبين من ذلك أن التوحيد لا يسعه علم العقائد وحده، وإنما هو التعامل مع الله تعالى كما أراد، وإخلاص التوجه له وحده، وتخليص الرجاء والإشراف للحي الذي لا يموت، ومراقبته في السر والعلن، والاستخفاف منه وحده، والخوف منه لا من سواه

وقد خوف الباري عز وجل عبيده بما يخافون، حتى يردعهم عن سبيل الضلال.

فالعبيد هم المستضعفون، والله الجبار، هم المقهورون على أمورهم وهو القهار، هم المسترسلون وهو القابض، هم المستكبرون وهو الخافض، هم المتعززون وهو المذل، هم الصاغرون وهو العظيم، هم الناكثون وهو الحسيب، هم الغافلون وهو الرقيب، هم المقصرون وهو الوكيل، هم الواهنون وهو القوي، هم المتهالكون وهو المتين، هم الطاغون وهو المحصي، هم الآملون وهو المميت، هم العاجزون وهو القادر، هم المعتدون وهو المنتقم، هم المملوكون وهو مالك الملك، هم الطامعون وهو المانع، وهم الشاكون وهو الضار

تلك صفات الخوف تخوف عباد الرحمن، ومتى خافوا عرفوه بها، إذ لا يعرف بغيرها، ومن عرفه بغيرها لم يقدر قدره.

وإن سألتني أيها الرفيق: كيف تعرف صفاته؟ قلت: لا تعرف بقراءة الصحف والصحائف، فدونك وعلم الأوراق، فلن تبلغ منه شيئا، وإنما تعرفها إذا أذعنت لصاحبها وسألته سؤال الراغب الملح كي يعرفك بها، ولا تنس أن تطلب اللطف مع التعريف، حتى لا تقهر فتتقهقر عنها، فإن كنت ذلك الرجل، حيث أظنك، فاقدم علينا من الباب، ولا تنادي من وراء الحجرات، وإن كنت من المدعين، فلا تسأل ما لا طاقة لك به فتكون من النادمين.

على أعتابنا يقف الفارون إلى ربهم من وهج ما صنعت أيديهم، «حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه، ثم تاب عليهم ليتوبوا، إن الله هو التواب الرحيم». التوبة119

على أعتابنا يقف النادمون؛ ومن ترفع عن الوقوف واستعجل الديار، فما له عندنا من أخبار حتى يدع التنطع والإصرار.

اذهب يا زيد ولا تتربع علينا ولا زال فيك من الدنيا بقية، فما لك عندنا من مرام، اذهب يا زيد والعب النرد وعد مهاويك وأحسن العد، فوالله ما ينساك الواحد الأحد؛ حتى إذا قنعت من التموج في من يموج، ومللت غانيات المروج، وضقت ذرعا بكل ما يروج، فادلف إلى بابنا فإنه لا يوصد في وجه أحد.

إذا أتيت وما همك سوى فضول الآتي، فإتيانك غير موات، وقد توتى من حيث لا تحتسب، فأبعد عن العرين حتى تلين، وإذا لم تبعد وبقيت على صلابتك كسرناك بجناح الرحمة، وإذا لم تبعد وبقيت على جهالتك حضناك حتى كدت تقضي حضينا، وإذا بقيت على غوايتك أغويناك بملامتك، وجاريناك في ضلالتك، وأجريناك ضمن من أجرينا من أهل بطانتك حتى تسلم تسليما، فإن لم تسلم لم ندعك لنفسك، بل أذقناك مما هيأ لنا المولى من كؤوس الزعاف، حتى لا يبقى لك عن التسليم مفر؛ فإذا أسلمت سلمناك لقوافل السالكين، وأركبناك الركب المتين، وأمرنا أحد الحادين يحدو، ومتى حدا وسمعته يغشاك الحنين، فتفيض عيناك، ثم ننساك حتى حين.

أيها العابدون الله وحده، الموحدون غيره، ما لكم من الأمر شيء، «إن الأمر كله لله، أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون». يوسف40

سأدلك أيها الرفيق على كيف تعرف صفات القهر: أسلم نفسك للقهار وارتج أن يعرفك بما طلبت، ضع الحبل على الغارب وارض بالمكاتيب مادام الله الكاتب، لا تفرح بالنعم ولا تحزن عند المصائب، اقرأ في صحف البلاء فسوف يعرضها عليك بكرة وأصيلا، وافهم ما تقول، ستلقى معاني كتبت بمداد الخوف والحرمان، بقلم قد من صولجان، وإذا خفي عنك ما تقول، فاسأل من يصول فيها ويجول، أولئك خبراء الصفات، يؤولون المعاني إذا تعلقت بالذات، ويذلون كل جبار عات، ولا ينبيك غير خبير.

عرفنا خوفه فأمنا، وكلما زدنا معرفة كان لنا من الأمن زيادة، وما فتئ الأمن يزيد حتى صار غفلة، فأصبحنا من الغافلين، وظنناه أرادنا بما نحن عليه ، فتكلمنا كلام الأمن، فاستكانت قلوب السامعين، وأصبحنا مبشرين، ولولا أن كنا من المسبحين لنسينا مع من نسي، ولكننا كنا نناجيه ونسأله بالليل هل نحن مفلحون، ولما راق الكاس وشعشعت الشمول، ولعبت الحميا بالراس، وصار المعقول غير معقول، أخذنا من الكشف نصيبا، وزاد شربنا في الكأس شيئا عجيبا، فلم ندر ما نقول؛ سكرنا بالمحبة، واستوت لدينا الدهور بمعتقة عبر العصور، تمور في الوجدان مورا، وتدور بالأكوان ألف مرة.

نادمنا في ليالي القدر أقواما يذكرون الله بالتغني، لا يعرفون الطلب والتمني، فأمدونا في ليل بلا قمر بما عزب عن كل البشر، حتى صار علمنا بحرا بلا ساحل تتيه فيه المراكب وينخلع من موجه قلب الراكب؛ وضج الراس بما عرف من أسرار لا حاجة لنا بها، وعرفنا أننا أمعنا في السياحة والإبحار، فندمنا على كشف الستار، واشتقنا للنظر بعد الإبصار، فتضرعنا إليه كي يحجب عنا الملكوت، وينسينا ما عرفنا من نعوت، ولجأنا إليه نسأله العافية والناس في فراشها لا هي، سائمة ساهية، فأدركنا برحمته وغمرنا برأفته، ورأى من حالنا أن سلكنا وحدنا حين غاب عنا بعض من سبقنا للطريق، وقبل توبتنا في ليلة لا تليق، فعدنا سالمين آيبين تائبين عابدين لربنا حامدين؛ ابتدأنا بالخوف حتى لا نعيد الكرة، وخوفنا أكثر من مرة، حتى أوجست النفس وانزعج الخاطر فترة بعد فترة، ثم قال: هل خفتني؟ قلت: خفتك، قال: عرفتني؟ قلت: أنت الجبار، هل أمنتني؟ كيف آمن مكرك وأنت خير الماكرين.

ما بال عبدك لما رجع إليك كي تلقاه بالرأفة أمته اثنتين ثم بعثته، فلما حيي اشتاق إلى موته؛ القهر منك يا قهار فتت ما تبقى من أمني، وخفف عني أحمالا وأثقل علي أحمالا، فإذا المعارف غير المعارف، وإذا الدمع في العين ذارف، ليس من حر الجوى، ولكن من هول المخاوف.

ها أنا يا خليل فيما كتبت لي من أمور يشيب لها الولدان راض على الأحزان، لا تهمني أوصالي ما رجفت لما حل بي من أكدار، في زمن ليس مثله في الأزمان؛ الإضطرار طرق ساحة عبدك لما ألجأته إليك فدعاك، وما للعبد من يخرجه من قهرك غيرك يا قهار.

لا إله إلا هو، عرشه على الماء، والثمانية يحملون العرش ومن حوله، هم عند ربك أدرى من غيرهم بجبروته، وإلا فما استغفارهم للمومنين؛ لا إله إلا هو، ما اتخذ من صاحبة ولا ولد، المهيمن أحاط بسرائر ما خلق، ما خلقهم عبثا، أحسن صنع كل شيء وكل شيء أنزله بمقدار، لا مفر من الله إلا إليه، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

ترى تنساني فيما صنعت يدي، بعدما صنعتني في عجل؟ ترى تدركني يا وكيل إذا تهت ولم أدر ما العمل؟

من لي غيرك يا مولاي إذا دارت بي دوائر لا منجي منها متى دارت سواك؟ ألا يكفيك أني عرفت معاني الخوف حتى تعيده علي؟ متى تعفيني يا عفو وتردني إلى شيء من أمني؟ متى تصفح عن عبدك فإن عقابه لا يغني؟ ما حاجتك لتخويفي سوى أن تتعرف إلي وقد عرفتك فما فتئت لا أخاف؟

سأرش بالخوف ما أبلغ من رسالات للآمنين، وأوحدك كما تشاء، وأجمع على وحدتك المشركين، وأحكي جبروتك لكل ختال كفور، وأتغنى بما انتابني في ساعات الجهد والأهوال، من مخاوف، في تيه ودلال

بما عزفت الأملاك على أوتار القربى لما طالعتها على حين غرة في عرفات بات فيها الحجيج، جذبنا على أنغامها جذبا، وبما ألهب الشوق وزاد الأجيج من روائع من ذي الجلال أذهلت رائعات الملائك أولي أجنحة تحوم بالبيت في عرض بحار راكدات لا تهيج؛ بواحد تجلى للعاشقين كل على هواه في سماء ما لها من فروج، بما زارني في ظلمة أضاءت ما استتر من دياجير غياباتي وأضحى يروج، بما سقت وساقني من حيث لا أدري إلى عالم عز منه الخروج، عجزت عن حمد من أولاني بما أولى به من ساروا في صفاء، لا يهمهم من علا الران ما شيد على رمال، سرعان ما يتهاوى ما حق الحق من بروج

أنواع الـخُوَّفِ:

الأول: خوف عاملون راكعون ساجدون، يتقون بابتتالهم وامتثالهم حر جهنم، دفعهم خوفهم منها إلى القيام بأمر الله والوقوف عند نهيه، يخشعون ويبكون خوفا من أن يردوها، وقد قرؤوا وسمعوا عنها ما يدفعهم للخوف وأخذ الحذر، أولئك خوف النار، أمرهم الله بالخوف فعملوا بأمره، وفهموا ما يقتضيه الخوف، فأطاعوا السيد كي لا يعذبهم، فيسلموا وينجوا من لفحها

لله يا الكاويات، لهيبها شاعل فى احداقي، مالو من راقي. حروق شاوية على وجوه الحسان، والغيد نارها فى الجيد، زينها قبحو فى العيان، عاد فريد. قيود فى معاصم، مدى لبست من سوار، صوابع عزفت عالاوتار، ما عادت باهية، زينها طار، خوف ؤ روايع، صروف ؤ صراخ ولا احد سامع، ملوك سيفها بتار، تقمع خلايق بمقامع النار، ما فيهم رحمه ولا يشفقوا على بشار، ما يسخاوا بعذاب من خفت موازنو، ليل ولا نهار، سوى ياذن بالرحمة مولاي، الوحيد القهار.

عنيتك يا الكاديات، يوم مالو ثاني
نار واكدة شرارها فى اعلالي
قومان تصيح فى ازوابي وتعاني
وثاقها سلاسل وغلالي
ترى زادي يرجح فى الميزان

ومالك اَمالك على باب الاهوال
وضعك المولى فى اعوافي
حارس شرار على باب الدار
ما تصفح ولا تعافي
بالقدرة ما تمسك نيران

خوفي من يوم الحر لا نخيب
نصلى فى شر اعمالي
نار شاعلة ولهيب
لا صديق ولا قريب يوالي
ولا حد بان من الاخوان

والني والني يا الخافي لا تنساني
انت لي بريتيني يا الباري فى اعجالة
ما ضرك ما سويت وانا جاني
فوت عذابي لا تواخذني بزلاله
علاه ما انت رحمن

لا تجدهم إلا سائلين عما يرضي الله عز وجل ليفعلوه، وعما يغضبه ليجتنبوه، هم في حالة استنفار، ومتى أذنبوا أكثروا من الاستغفار، حازوا الورع والتقوى، رضي الله عنهم ورضوا عنه.

لهم نصيب من الخشوع، متى قرأوا في صلاتهم بآي الترهيب بكوا وطلبو النجاة، ومتى قرأوا بآي الترغيب استبشروا وطلبو الفوز والفلاح.

ذلك مبلغ علمهم، منهم من لا يزيد عن حاله مهما علمته، إذ قصر فهمه عن إدراك ما هو أسمى من ذلك.

يعمرون مساجد الله تعالى، وينصرون دينه، لا حرج عليهم، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين.

الثاني: خُوَّفٌ خافوا الله ليس لناره فحسب، بل لمعرفتهم بصفاته، حذروا الملامة والأذية منه في الدنيا والآخرة، بما علموا أن الله تعالى قد يعجل العقاب في الدنية قبل الآتية، فسلكوا سبيل السلامة حتى لا يصيبهم الله تعالى بمكروه، فكانوا أرقى منزلة من خوف النار، إذ لم يقفوا على آيات الوعد والوعيد وحدها، بل وقفوا حتى عند ظهور الحق بالقوة والجبروت، فجمعوا بذاك بين الحسنيين ووفقوا بين الأمرين، فكانوا أقرب إلى ربهم وأعرف به من الطائفة الأولى.

وهؤلاء يتذاكرون في الله وفي الآخرة، وقد تجد في مجالسهم قسطا من المعرفة، لا تجده في مجالس الصنف الأول من الخوف، أولئك يدخلون في سلك العارفين.

الثالث: خُوَّفٌ أمعنوا في معرفته بتوفيق منه تعالى، إما بملازمة شيوخ الطريق، وإما بما أمد الله قلوبهم من أمداد المعارف، فغلبت محبته سبحانه على عوالمهم وكلفوا بذكر الحبيب، حتى لم يبق في قلوبهم لغيره نصيب، أحبهم المولى فأحبتهم الأكوان، ونشر لهم بساط المحبة والوداد بين العباد، لا يكاد أحد يراهم سوى أحبهم، ولا يبغضهم سوى من حرمه الله تعالى سكينة الإيمان، لا يراعون لمن آذاهم ولم يوقر حرماتهم، إذ هم عن الناس بالله؛ لا تسع قلوبهم نشوة القربى، ولا تتحمل أبدانهم غمرة الفرح التي أورثوها بفضل الله ومنته، تراهم لا يفترون عن ذكر الجليل أينما حلوا وارتحلوا، لا يغيب عنهم الباري عز وجل طرفة عين، تنعموا قبل النعيم في أرض البلاء، دون الناس أجمعين، لا يستشرفون الجنة استشراف الناس لها، ويخافون النار أشد من خوف الناس منها.

ما زادت معرفتهم بعظمة الله تعالى وجبروته إلا ازدادوا ذلا وخضوعا، واقفون على الأعراف، تعرفهم بسيماهم بين نار الخوف وجنة الرجاء، لا يأمنون مكر الله تعالى، ولا يقنطون من رحمته؛ من صفاتهم:

– لا يتكلمون إلا قليلا، وإذا تكلموا أصابوا شغاف القلوب، وأذابوا من الصلد ما لا يذوب، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما.

– يحقرون أعمالهم مهما ربت، ويخافون ألا يخلصوا فيها لله تعالى، فيردها عليهم، ويكتمون حسناتهم كما يكتمون سيئاتهم.

– لا يرون لأنفسهم فضلا على الناس، بل يوقرون خلق الله عز وجل، ويخدمونهم ويدعون لهم بالهداية والخير

– حلماء يغفرون لمن آذاهم، ويدعون الله تعالى له بالهداية.

– زينهم بأنواره وأضفى عليهم وقار الملوك رغم ذلهم له، فعزوا مهما كان شأنهم بين الناس، فلا الجاه يرفعهم، ولا المال يطغيهم، ولا النسيان يغمرهم، ولا الفقر يسخطهم.

– راضون بما صرفهم المولى فيه، وبما صرف المولى عليهم؛ لا يضجرون ولا يغضبون ولا ينتصرون، بل تركوا الأمر لله يفعل ما يريد.

– أعطوا لكل ذي حق حقه، ولم يلحوا في طلب حقوقهم مهما سلبت، إذ هم بالمولى في عز وغنى وبالمعطي في قناعة ورضا.

من جالسهم غفر له، متى ضام انفرج، ومتى أظلم انبلج، ومتى ابتأس ابتهج، ومتى انحرف انتهج

هم مصابيح الأمة، يستقون من مشكاة النور، لا يخبو نورهم، ولا ينتهي حبورهم، ولا تفرغ من القاصدين دورهم.

– لا يضيقون ذرعا بسائل أو بضيف، ولا يردون الآتي في مشتاة أو في صيف

يقول الحسن البصري رحمه الله تعالى:

إن لله عبادا كمن رأى أهل الجنة في الجنة مخلدين، وكمن رأى أهل النار في النار معذبين، قلوبهم محزونة وسرائرهم مأمونة، حوائجهم خفيفة وأنفسهم عفيفة، صبروا أياما قصارا لعقب راحة طويلة؛ أما الليل فصافون أقدامهم، تسيل دموعهم على خدودهم، يجأرون إلى ربهم: ربنا، ربنا، وأما النهار فحكماء علماء أتقياء، كأنهم القداح ينظر إليهم الناظر فيحسبهم مرضى، وما بالقوم من مرض، أو خولطوا، وقد خالط القوم من ذكر الآخرة أمر عظيم. انتهى من ملحق تاريخي بالختم

ويقول الحكيم الترمذي رحمه الله تعالى:

الأولياء هم الذين عليهم سمات ظاهرة من الله تعالى: قد علاهم بهاء القربة ونور الجلال وهيبة الكبرياء وأنس الوقار، فإذا نظر الناظر إليهم ذكر الله تعالى، لما رأى عليهم من آثار الملكوت، والقلب معدن هذه الأشياء ومستقر النور؛ فإذا كان على القلب نور سلطان الوعد والوعيد تأدى إلى الوجه ذلك النور، فإذا وقع بصرك عليه ذكرك التقوى ووقع عليك منه مهابة الصلاح والعلم بأمور الله تعالى، ومتى كان على القلب نور سلطان الحق ذكرك الصدق والحق، ووقع عليك مهابة الحق والاستقامة، وإذا كان عليه نور سلطان الله تعالى وعظمته وجلاله، ذكرك عظمته وجلاله وسلطانه، وإذا كان على القلب نوره، وهو نور الأنوار، بهتك رؤيته. انتهى من المرجع نفسه

الفصل السادس عشر: في أن يوم الجمعة يوم خوف وفزع

يقول ابن القيم رحمه الله تعالى في يوم الجمعة: أنه اليوم الذي تفزع منه السمواتُ والأرضُ، والجبالُ والبحارُ، والخلائقُ كلها إلا الإنسَ والجنَّ، فروى أبو الجوَّاب عن عمّار بن رزيق عن منصور عن مجاهد عن ابن عباس قال: اجتمع كعب وأبو هريرة، فقال أبو هريرة: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «إنَّ في الجمُعَة لَسَاعَةً لا يُوافقُهَا عَبْدٌ مُسلمٌ يَسْألُ اللهَ فيهَا خَيرَ الدُنيَا والآخرَة إلاّ أعطاه إياه»، فَقَالَ كَعْبُ: ألا أُحدِّثكم عَنْ يوم الجُمُعَة، إنَّهُ إذا كَانَ يَوْمُ الجُمُعَة، فزعَتْ لَهُ السَّمواتُ والأرْض والجبال والبحار والخلائق كلُّها، إلا ابنَ آدم والشياطين، وحفَّت الملائكةُ بأبَواب المساجد، فيكتُبُونَ الأوَلَ فالأوَّل حتى يخرجَ الإمامُ، فَإذَا خَرَجَ الإمامُ، طَوَوْا صُحفَهُم، ومَنْ جَاءَ بَعْدُ جَاءَ لحَقِّ اللهِ ولمَا كُتبَ عَلَيْه، ويَحقُّ عَلَى كُلِّ حالم أن يَغْتَسلَ فيه كاغتساله منَ الجَنَابَة، والصَّدَقَةُ فيه أفضَلُ منَ الصَّدَقَة في سَائر الأيَّام، وَلَم تَطْلُع الشَّمس وَلَمْ تَغْرُب عَلَى يَوْم كَيَوْم الجُمُعَة؛ قال ابن عباس: هذا حديث كعب وأبي هريرة، وأنا أرى من كان لأهله طيب أن يصرَّفه يومئذ.

وفي حديث أبي هُريرة: عن النبي ﷺ: «لا تطلع الشمس ولا تغرب على يوم أفضلَ من يوم الجمعة، وما من دابة إلا وهي تفزَعُ ليوم الجمعة، إلا هذين الثَّقلين من الجن والإنس»، وهذا حديث صحيح، وذلك أنه اليوم الذي تقومُ فيه الساعة، ويُطوى العالم، وتَخْرَب فيه الدنيا، ويُبعث فيه الناس إلى منازلهم من الجنة والنار. انتهى من زاد المعاد

الفصل السابع عشر: في الكلام عن الخشية

قال الله عز وجل: «الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله، وكفى بالله حسيبا». الأحزاب39

وفيه نهي الله تعالى عن خشية سواه من المخلوقين، ورد الخشية إلى الله وحده

قلت: تعددت مرادفات الخوف في لغة الضاد، وتوحد لفظ الخشية في ألسن العارفين بالمخاطبات السنية في الحضرات البهية، يلجأون إليه به، بأنه هو ذو المهابة والجلال، لا إله إلا هو، شديد المحال

ولم يرد لفظ الخشية من غير الله في القرآن الكريم إلا قليلا، لقرائن نذكرها في هذا الفصل إن شاء الله تعالى:

تعريف الخشية:

قال ابن منظور: الخشية: الخوف، خشي الرجل يخشى خشية، أي يخاف، قال ابن بري: ويقال في الخشية الخشاة؛ قال الشاعر:

كـأغلب من أسود كراء ورد   يـرد خشاية الرجـل الظلـوم

ابن سيده: خشيه يخشاه خشيا وخشية وخشاة ومخشاة ومخشية وخشيانا وتخشاه، كلاهما: خافه، وهو خاش وخش وخشيان، والأنثى خشيا، وجمعهما معا خشايا

وقوله تعالى: «فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا»، قال الفراء: معنى: «فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا»، معنى فخشينا، أي فعلمنا، وقال الزجاج: فخشينا من كلام الخضر، ومعناه كرهنا، ولا يجوز أن يكون فخشينا عن الله، والدليل على أنه من كلام الخضر، قوله: «فأردنا أن يبدلهما ربهما»، وقد يجوز أن يكون: فخشينا عن الله عز وجل، لأن الخشية من

الله معناها الكراهة، ومن الآدميين الخوف، ويكون قوله حينئذ فأردنا: بمعنى أراد الله، وفي حديث ابن عمر: قال له ابن عباس: لقد أكثرت من الدعاء بالموت حتى خشيت أن يكون ذلك أسهل لك عند نزوله، خشيت هنا بمعنى: رجوت. انتهى

قال أبو الفتح الجعفي عفا الله عنه: قال الله تعالى: «إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين». التوبة18

قلت: وفيه تخصيص الواحد الأحد عز وجل بالخشية دون سواه، متى ما أريد بها الخوف

وقد ورد لفظ الخشية في القرآن الكريم بمعنى الكراهة كما في قوله تعالى: «قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن أفعصيت أمري، قال يبنؤم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ولم ترقب قولي». طه92

وفي قوله تعالى: «وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين فخشينا أن يرهقهما طغيانا وكفرا، فأردنا أن يبدلهما ربهما خيرا منه زكاة وأقرب رحما». الكهف 79 - 80

وورد الخوف بمعنى الحذر، كما في قوله تعالى: «وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم، فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا». النساء09

وقد جاء لفظ الخشية في أمر الآخرة بدل لفظ الخوف في القرآن الكريم، بمعنى الحذر مرة واحدة في قوله تعالى: «يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزي والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا، إن وعد الله حق، فلا تغرنكم الحياة الدنيا، ولا يغرنكم بالله الغرور». لقمان32

وفي قوله تعالى: «إنما أنت منذر من يخشاها». النازعات44

قال في الختم: واعلم أن من أراد الله هدايته، واكتنفته رأفته ورحمته ومنحه طريق محبته، فسبيله إذا فتح عليه هذا الطريق أن يرزقه خشيته، وإنما برزت الخشية من العلم به، فإذا علمه القلب خشيه، وإنما ينال العلم من الفتح، فإذا فتح الله له شاهد الأشياء ببصر قلبه فعلمه فخشيه، وإذا التزم القلب الخشية حشاه الله بالمحبة، فيكون بالخشية معتصما مما كره الله سبحانه، مهما دق أو جل، ويكون بالمحبة منبسطا في أمور ذا شجاعة؛ فلو ترك الله العبد مع الخشية، لانقبض وعجز عن كثير من أموره، ولو تركه مع المحبة وحدها، لاستبد وتعدى، لأن النفس تهيج ببهجة المحبة، ولكنه، تبارك اسمه، لطف به فجعل الخشية بطانته، والمحبة ظهارته، حتى يستقيم به قلبه فيرى التبسم والانطلاق والسعة في وجه العبد وأموره، وذلك لظهور المحبة على قلبه، ومع ذلك في داخله أمثال الجبال خشية، فقلبه خاشع ووجهه منطلق، ثم يرقي الله العبد إلى مرتبة أخرى، وهي الهيبة والأنس، فالهيبة من جلاله والأنس من جماله، فإذا نظر إلى جلاله هاب، وإذا نظر إلى جماله انبسط وطاب، فلو تركه مع الجلال لعجز عن أموره، كثوب ملقى أو جثة بلا روح، ولو تركه مع الجمال لجاشت نفسه وتعدت، فجعل الله تعالى الهيبة شعاره والأنس دثاره حتى تستقيم له نفسه

ثم يرقيه الله إلى مرتبة أخرى، وهي مرتبة الانفراد: مرتبة القربة العظمى، فمكن له عز وجل بين يديه ونقاه بنوره، وفتح له الطريق إلى وحدانيته، وأطلعه على بدء الأمر من قوله: «الظاهر والباطن»، وأحياه بنفسه واستعمله، فبه ينطق هذا العبد، وبه يعقل، وبه يعلم وبه يعمل، وهو قول رسول الله ﷺ، فيما يحكيه عن ربه: «فإذا أحببت عبدي كنت فؤاده، فبي يعقل، وسمعه وبصره، فبي يسمع ويبصر، ويده، فبي يبطش».

فهذا سيد الأولياء، وأمان أهل الأرض، ومنظر أهل السماء، وخالصة الله وموضع نظره، وسوطه في خلقه، يؤدب بكلامه، ويرد الخلق إلى طريقه، ويجعل منطقه قيدا لقلوب الموحدين، وفصلا بين الحق والباطل. انتهى من ختم الأولياء

الفصل الثامن عشر: في ذكر ما تبقى من مرادفات الخوف والخشية كما وردت في التنزيل

الوجل

قلت: الوجل انقباض القلب خوف وقوع المكروه

وهو من صفات المؤمنين، ينتابهم متى زاد خوفهم عن رجائهم، فلم يقروا بما وفقوا له من طاعات، وغلب عليهم احتقار ما قدموا لأنفسهم من حسنات، واستعظام ما فرطوا في حق ربهم، بما ارتكبوا من مخالفات، ووقعوا فيه من زلات

«إنما المومنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم». الأنفال02

ويجوز الوجل من الله ومن غيره، كما هو الأمر في الخوف، لأنه من أسباب حفظ الحياة واجتناب الأذى

وقد خص إبراهيم عليه السلام بالوجل في القرآن الكريم عن غيره من الأنبياء والمرسلين

قال تعالى: «إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما، قال إنا منكم وجلون». الحجر52

الفزع

والفزع الفرق والذعر من الشيء

قال ابن منظور: قال سلامة:

كنـا إذا ما أتانـا صارخ فـزع   كان الصراخ له قرع الظنـايب

وقوله تعالى: «حتى إذا فزع عن قلوبهم»، عداه بعن لأنه في معنى كشف الفزع، ويقرأ فزع، أي فزع الله، وتفسير ذلك أن ملائكة السماء كان عهدهم قد طال بنزول الوحي من السموات العلا، فلما نزل جبريل إلى النبي ﷺ بالوحي أول ما بعث، ظنت الملائكة الذين في السماء أنه نزل لقيام الساعة، ففزعت لذلك، فلما تقرر عندهم أنه نزل لغير ذلك كشف الفزع عن قلوبهم، فأقبلوا على جبريل ومن معه من الملائكة، فقال كل فريق منهم لهم: ماذا قال ربكم؟ فسألت لأي شيء نزل جبريل عليه السلام، قالوا الحق. انتهى من لسان العرب

قلت: وقد استعمل الباري عز جل لفظ الفزع أكثر ما استعمله يريد به فزع يوم البعث، ما عدا في آية واحدة، وهي قوله تعالى: «إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف». صاد21

وفي ذلك بيان شدة خوف داود عليه السلام لما دخل عليه الملكان، حتى أن الله تعالى عبر عن خوفه بالفزع، رغم أنه تعالى لم يستعمل الفزع إلا للتعبير عن الخوف يوم البعث وأهواله، فتدبر

قال تعالى: «ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله». النمل89

وقال سبحانه: «لا يحزنهم الفزع الأكبر» الأنبياء102

الوجف

والوجف: الخوف المصحوب بخفقان القلب واضطرابه

قال في لسان العرب: وَجَف الشيءُ إذا اضطرب، ووجَف القلب وجيفاً: خَفَق، وقلب واجِف؛ وفي التنزيل العزيز: «قلوبٌ يومئذ واجفة»؛ قال الزجاج: شديدة الاضطراب؛ قال قتادة: وجفَت عما عاينت، وقال ابن الكلبي: خائفة؛ وقوله تعالى: «فما أَوجفتم عليه من خيل ولا رِكاب»؛ أَي: ما أَعملتم، يعني ما أَفاء اللهّ على رسوله من أَموال بني النضير، مما لم يُوجف المسلمون عليه خيلاً ولا رِكاباً، والرِّكاب الإبل؛ وفي الحديث: «لم يُوجِفوا عليه بخيل ولا ركاب»؛ الإيجاف: سُرعة السير؛ ويقال أَوجف فأَعجَف؛ قال العجاج:

ناجٍ طَواه الأَيْنُ مما وَجَفا طَيَّ اللَّيالي زُلَفاً فَزُلَفا
سَماوَةَ الهِلالِ حتى احْقَوْقَفا

. انتهى

قال الشيخ: الوجف يكون يوم القيامة:

قال تعالى: «قلوب يومئذ واجفة أبصارها خاشعة». الذاريات08

يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله تعالى: أما قوله تعالى: «وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب»

فالمراد بالإيجاف فيه الإسراع في السير، يقال: وجف الفرس يجف وجيفا، أي أسرع في السير

يقول تعالى مبيناً ما الفيء وما صفته وما حكمه، فالفيء كل مال أخذ من الكفار من غير قتال ولا إيجاف خيل ولا ركاب، كأموال بني النضير هذه ، فإنها مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، أي لم يقاتلوا الأعداء فيها بالمبارزة والمصاولة، بل نزل أولئك من الرعب الذي ألقى الله في قلوبهم من هيبة رسول الله ﷺ، فأفاء الله على رسوله، ولهذا تصرف فيه كما يشاء، فرده على المسلمين في وجوه البر والمصالح التي ذكرها الله عز وجل في هذه الآيات، فقال تعالى: «وما أفاء الله على رسوله منهم»، أي من بني النضير، «فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب»، يعني الإبل، «ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير»، أي هو قدير لا يغالب ولا يمانع، بل هو القاهر لكل شيء. انتهى من تفسير ابن كثير

الهلع

والهلع: الجزع المصحوب بالذهول

قال ابن منظور: الهَلَعُ: الحِرْصُ، وقيل: الجَزَعُ وقلّةُ الصبر، وقيل: هو أَسْوأُ الجَزَع وأَفْحَشُه، هَلِعَ يَهْلَعُ هَلَعاً وهُلوعاً، فهو هَلِع وهَلُوعٌ؛ ومنه قول هشام بن عبد الملك لِشَبَّةَ بن عَقَّال حين أَراد أَن يقبِّل يده: مَهْلاً يا شبَّةُ فإِن العرب لا تفعل هذا إِلا هُلُوعاً، وإِن العَجَم لم تفعله إِلا خُضوعاً؛ والهِلاعُ والهُلاعُ: كالهُلُوعِ.

ورجلٌ هَلِعٌ وهالِعٌ وهَلُوعٌ وهِلْواعٌ وهِلْواعةٌ: جَزُوعٌ حرِيصٌ.

والهَلَعُ: الحُزْنُ، تميميَّة. والهَلِعُ: الحَزِينُ؛ وشُحٌّ هالِعٌ: مُحْزِنٌ؛ وفي التنزيل: «إِنّ الإِنسان خُلِقَ هَلُوعاً»؛ قال معمر والحسن: هو الشَّرِهُ، وقال الفراء: الهَلُوعُ الضَّجُورُ، وصفته كما قال تعالى: «إِذا مَسَّه الشر جَزُوعاً وإِذا مسه الخيرُ مَنُوعاً»، فهذه صفته.

والهَلُوعُ: الذي يَفْزَعُ ويَجْزَعُ من الشرّ؛ قال ابن بري: قال أَبو العباس المبرد: رجلٌ هَلُوعٌ، إِذا كان لا يصبر على خير ولا شرّ حتى يفعل في كل واحد منهما غير الحق، وأَورد الآية وقال بعدها: قال الشاعر:

ولي قَلْبٌ سَقِيمٌ ليس يَصْحُو ونَفْسٌ ما تُفِيقُ من الهُلاع

وفي الحديث: «من شَرِّ ما أُعْطِيَ المَرءُ شُحٌّ هالِعٌ وجُبْنٌ خالِعٌ»، أَي يَجْزَعُ فيه العبدُ ويَحْزَنُ كما يقال: يومٌ عاصِفٌ ولَيْلٌ نائِمٌ، ويحتمل أَيضاً أَن يقول: هالِعٌ للازدواج مع خالِع، والخالِعُ: الذي كأَنه يَخْلَعُ فُؤادَه لشِدَّته. انتهى

ورد لفظ الهلع في القرآن الكريم مرة واحدة، في قوله تعالى: «إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا». المعارج19– 20

الرعب

قال ابن منظور: والرعب الفزع والخوف

رعبه يرعبه رعبا ورعبا، فهو مرعوب ورعبيب: أفزعه، ولا تقل أرعبه ورعبه ترعيبا وترعابا، فرعب رعبا وارتعب، فهو مرعب ومرتعب، أي فزع. انتهى

قال أبو الفتح: والرعب زلزلة البواطن بما حان أو بما هو حائن، وانخلاع الأفئدة خوف الأذى مما خفي أو مما هو بائن، وقد يترتب عنه الذهول وخفقان القلب وارتعاش الفرائص.

وهو من عذاب الله تعالى يسلطه على عدوه وعدو رسوله ﷺ والمومنين، حتى يكسر شوكته ويرهبه عند المقابلة والسجال.

قال أبو الفتح: ولم أجد في القرآن الكريم الرعب إلا مقذوفا أو ملقى من الباري عز وجل في قلوب الذين كفروا خاصة.

قال تعالى: «سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا». آل عمران151

وقال: «وقذف في قلوبهم الرعب، فريقا تقتلون وتأسرون فريقا». الأحزاب26

حدثنا محمد بن سنان قال: حدثنا هشيم قال: وحدثني سعيد بن النضر قال: أخبرنا سيار قال: حدثنا يزيد، هو ابن صهيب الفقير، قال: أخبرنا جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال: «أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي المغانم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة». رواه البخاري

أما قوله تعالى في سورة الكهف: «لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا ولملئت منهم رعبا». الكهف18

فذلك رعب حفظ الله به أصحاب الكهف حتى لا يكدر نومتهم مؤمن أو كافر، قدم نهارا أو ليلا طرق، ليتم حكمته من رقودهم ما شاء، فلا يقربهم إنسان إلا ولى هاربا

الرهب

قال في لسان العرب: رَهِبَ بالكسر، يَرْهَبُ رَهْبَةً ورُهْباً بالضم، ورَهَباً بالتحريك، أي خافَ. ورَهِبَ الشيءَ رَهْباً ورَهَباً ورَهْبةً: خافَه.

والاسم: الرُّهْبُ، والرُّهْبى والرَّهَبوتُ والرَّهَبُوتى؛ ورَجلٌ رَهَبُوتٌ. يقال: رَهَبُوتٌ خَيرٌ مِنْ رَحَمُوتٍ، أي لأن تُرْهَبَ خير من أَنْ تُرْحَمَ.

وتَرَهَّبَ غيرَه إِذا تَوَعَّدَه؛ وأنشد الأزهري للعجاج يَصِفُ عَيراً واتُنَه:

تُعْطِيهِ رَهْباها، إِذا تَرَهَّبَا ... على اضْطِمَارِ الكَشْحِ بَوْلاً زَغْرَبا

عُصارةَ الجَزْءِ الذي تَحَلَّبا

قوله: «الكشح»، هو رواية الأزهري، وفي التكملة: اللوح، وفي حديث الدُّعاء: «رَغْبةً ورَهْبةً إِليك». الرَّهْبةُ: الخَوْفُ والفَزَعُ، جمع بين الرَّغْبةِ والرَّهْبةِ، ثم أعمل الرَّغْبةَ وحدها، كما تَقدَّم في الرَّغْبة؛ وفي حديث رَضاع الكبير: فبَقِيتُ سنَةً لا أُحَدِّثُ بها رَهْبَتَه؛ قال ابن الأثير: هكذا جاءَ في روايةٍ، أي من أجل رَهْبَتِه، وهو منصوب على المفعول له وأرْهَبَه ورَهَّبَه واستَرْهَبَه: أخافَه وفَزَّعه

واسْتَرْهَبَه: اسْتَدْعَى رَهْبَتَه حتى رَهِبَه الناسُ؛ وبذلك فسر قوله عز وجل: «واسْتَرْهَبُوهُم وجاؤُوا بسحْرٍ عظيم»؛ أي أرْهَبُوهم، وفي حديث بَهْز بن حَكِيم: إِني لأسمع الرَّاهِبةَ؛ قال ابن الأثير: هي الحالة التي تُرْهِبُ أي تُفْزِعُ وتُخَوِّفُ؛ وفي رواية: أَسْمَعُك راهِباً أي خائفاً. انتهى

قلت: وقد خص لفظ الرهبة في القرآن الكريم ببني إسرائيل على الخصوص وببعض المنافقين، كما سنراه في محله إن شاء الله تعالى.

قال تعالى: «يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون». البقرة39
وقال تعالى: «واضمم إليك جناحك من الرهب». القصص32

والمعروف أن هذه الآية تتحدث عن موسى عليه السلام، وهو نبي بني إسرائيل

أما قوله تعالى: «ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم، والله يشهد إنهم لكاذبون، لئن أخرجوا لا يخرجون معهم، ولئن قوتلوا لا ينصرونهم، ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون، لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله، ذلك بأنهم قوم لا يفقهون». الحشر11- 13

قال ابن كثير: يخبر تعالى عن المنافقين، كعبد الله بن أبي، وأضرابه، حين بعثوا إلى يهود بني النضير يعدونهم النصر من أنفسهم، فقال تعالى: «ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب: لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصركم»، قال الله تعالى: «والله يشهد إنهم لكاذبون»، أي لكاذبون فيما وعدوهم به؛ إما لأنهم قالوا لهم قولاً ومن نيتهم أن لا يفوا لهم به، وإما لأنهم لا يقع منهم الذي قالوه، ولهذا قال تعالى: «ولئن قوتلوا لا ينصرونهم»، أي يقاتلون معهم، «ولئن نصروهم»، أي قاتلوا معهم، «ليولن الأدبار ثم لا

ينصرون»، وهذه بشارة مستقلة بنفسها، ثم قال تعالى: «لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله»، أي يخافون منكم أكثر من خوفهم من الله، كقوله تعالى: «إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية»، ولهذا قال تعالى: «ذلك بأنهم قوم لا يفقهون». انتهى من تفسير ابن كثير

وقوله تعالى: «وَأَعِدّواْ لَهُمْ مّا اسْتَطَعْتُمْ مّن قُوّةٍ وَمِن رّبَاطِ الْخَيْلِ، تُرْهِبُونَ به عَدْوّ اللّهِ وَعَدُوّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دونهم لا تعلمونهم، الله يعلمهم، وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ». الأنفال 61

وقوله: «ترهبون»، أي: تخوفون به «عدو الله وعدوكم»، أي من الكفار، «وآخرين من دونهم»، قال مجاهد يعني بني قريظة، وقال السدي: **فارس**، وقال سفيان الثوري: قال ابن يمان: هم الشياطين التي في الدور، وقد ورد حديث بمثل ذلك:

قال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو عتبة أحمد بن الفرج الحمصي، حدثنا أبو حيوة، يعني شريح بن يزيد المقري، حدثنا سعيد بن سنان عن ابن غريب، يعني يزيد بن عبد الله بن غريب، عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول في قول الله تعالى: «وآخرين من دونهم لا تعلمونهم»، قال: هم الجن، ورواه الطبراني عن إبراهيم بن دحيم عن أبيه عن محمد بن شعيب عن سنان بن سعيد بن سنان عن يزيد بن عبد الله بن غريب به، وزاد: قال رسول الله ﷺ: «لا يخبل بيت فيه عتيق من الخيل»، وهذا الحديث منكر لا يصح إسناده ولا متنه، وقال مقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم: هم المنافقون، وهذا أشبه الأقوال، ويشهد له قوله تعالى: «وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم». انتهى من ابن كثير

وقوله تعالى: «وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين، إنما هو إله واحد، فإياي فارهبون». النحل 51

فالمخاطبون في هذه الآية أقرب إلى أن يكونوا يهودا منهم إلى النصارى، لأن النصارى عرفوا بالتثليث وليس بالتثنية، كما هو شأن اليهود؛ كما ثنا الله تعالى على كثير من الأنبياء والمرسلين عليهم السلام بعد ذكرهم، بقوله تعالى: «إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين». الأنبياء89

الجزع

«إن الإنسان خلق هلوعا إذا مسه الشر جزوعا». المعارج 19- 20

قال ابن منظور: قال الله تعالى: «إِذا مَسَّه الشرُّ جَزُوعاً وإِذا مسه الخَيْرُ مَنُوعا؛ الجَزُوع: ضد الصَّبُورِ على الشرِّ، والجَزَعُ نَقِيضُ الصَّبْرِ، جَزِعَ بالكسر يَجْزَعُ جَزَعاً، فهو جازع وجَزِعٌ وجَزُعٌ وجَزُوعٌ، وقيل: إِذا كثر منه الجَزَعُ، فهو جَزُوعٌ وجُزاعٌ؛ عن ابن الأَعرابي؛ وأَنشد:

ولستُ بِمِيسَمٍ في الناس يَلْحَى　　على ما فاته، وخِمٍ جُزاع

وأَجزعه غيرُه. انتهى

الروع

قال ابن منظور:

الرَّوْعُ والرُّواع والتَّرَوُّع: الفَزَعُ، راعَني الأَمرُ يَرُوعُني رَوْعاً ورُووعاً؛ عن ابن الأَعرابي، كذلك حكاه بغير همز، وإِن شئت

همزت، وفي حديث ابن عباس، رضي الله عنهما: «إذا شَمِطَ الإنسانُ في عارِضَيْه فذلك الرَّوْعُ»، كأَنه أَراد الإِنذار بالموت؛ قال الليث: كل شيء يَروعُك منه جمال وكَثرة تقول راعني، فهو رائع. والرَّوْعةُ: الفَزْعة؛ وفي حديث الدعاء: «اللهم آمِنْ رَوعاتي»؛ هي جمع رَوْعة، وهي المرّة الواحدة من الرَّوْع الفَزَع؛ ومنه حديث عليّ رضي الله عنه: أَن رسول الله ﷺ بعثه ليَدِيَ قوماً قتَلَهم خالدُ بن الوليد، فأَعطاهم مِيلَغةَ الكلب، ثم أَعطاهم برَوْعة الخيل؛ يريد أَن الخيل راعت نِساءهم وصبْيانهم، فأَعطاهم شيئاً لما أَصابهم من هذه الرَّوْعة. وقولهم في المثل: أَفْرَخَ رَوْعُه، أَي ذَهب فَزَعُه وانكشف وسكَن؛ قال أَبو عبيد: أَفْرِخ رَوعك، تفسيره: لِيَذْهَبْ رُعْبُك وفزَعُك فإِن الأَمر ليس على ما تُحاذر. انتهى

وقد ورد لفظ الروع في القرآن الكريم مرة واحدة، في قوله تعالى: «فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط، إن إبراهيم لحليم أواه منيب». هود73- 74

وفي ذلك تخصيص إبراهيم عليه السلام بالروع دون سواه من الأنبياء والمرسلين

الاشفاق

قال ابن منظور: والشَّفَقة: رقَّة مِنْ نُصْح أَو حُبّ يؤدِّي إِلى خوف. وشَفِقْت من الأَمر شَفَقةً: بمعنى أَشْفَقْت؛ وأَنشد:

فــإِنِّي ذُو مُحَــافَـظَــةٍ لقَوْمي   إذا شَفِقَتْ على الرِّزْق العِيالُ

وفي حديث بلال: «وإنما كان يفعل ذلك شَفَقاً مِن أَن يدركه الموت»؛ الشَّفَق والإِشْفاقَ: الخوف، يقال: شَفَقْت أُشْفق إشفاقاً، وهي اللغة العالية؛ وحكى ابن دريد: شَفِقْت أَشْفَق شَفَقاً؛ ومنه حديث الحسن: قال عُبَيْدة: أَتَيْناه فازْدحَمْنا على مَدْرَجة رَثّة فقال: أَحسنوا مَلأَكم أَيُّها المَرْؤُون، وما على البِناء شفَقاً ولكن عليكم؛ انتصب شَفَقاً بفعل مضمر، وتقديره: وما أُشْفِقُ على البناء شَفَقاً ولكن عليكم؛ وقوله: كما شَفِقَت على الزاد، أَراد: بَخِلت وضَنّت، وهو من ذلك، لأَن البخيل بالشيء مُشْفِق عليه. انتهى

قلت: والإشفاق يكون للمؤمنين في الدنيا من عذاب الآخرة، كما في قوله تعالى: «الذين يخشون ربهم بالغيب وهم من الساعة مشفقون». الأنبياء49

ويكون للكافرين في الآخرة خوف العقاب، كما في قوله تعالى: «ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه». الكهف48

أما الإشفاق من خشية الله تعالى، فقد نسبه الله تعالى للمؤمنين في قوله تعالى: «إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون». المومنون58

ونسبه للملائكة، في قوله تعالى: «وقالوا اتخذ الرحمن ولدا، سبحانه، بل عباد مكرمون، لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون، يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون». الأنبياء26 -28

ونسبه لبعض مخلوقاته من غير المكلفين، في قوله تعالى: «لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله». الحشر21

والظاهر مما ورد في التنزيل، أن الخشية لا تخص غير المؤمنين من بني آدم، أما الإشفاق من الخشية فقد يلحق الملائكة، وأما ما خلق الباري عز وجل من غير المكلفين، فلا طاقة لها بالإشفاق من الخشية، ومتى أشفقت من خشيته تعالى تصدعت، والله أعلم

وقد أمر الباري عز وجل عباده الصالحين بأن يدعوه خوفا وطمعا، أي خوفا من ناره وطمعا في جنته

فقال تعالى: «ادعوا ربكم تضرعا وخفية، إنه لا يحب المعتدين، ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها، وادعوه خوفا وطمعا، إن رحمة الله قريب من المحسنين». الأعراف54 -55

ونظير هذا قوله تعالى: «هو الذي يريكم البرق خوفا وطمعا وينشئ السحاب الثقال ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته». الرعد13 -14

أي خوفا مما يسببه ذلك من كوارث، وطمعا في أن يجود مزنه على الأرض الميتة، فيحييها، وينبت فيها من كل زوج بهيج

ولعل الذين يدعون ربهم رغبا ورهبا أكثر معرفة بمولاهم ممن يدعونه خوفا وطمعا

ولذلك ذكر الله تعالى جملة من الأنبياء والمرسلين، ثم اثنى عليهم بعد ذلك بقوله: «إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين». الأنبياء89

الفرق

قال في لسان العرب:

والفَرَقُ بالتحريك: الخوف. وفَرِقَ منه بالكسر، فَرَقاً: جَزِع؛ وحكى سيبويه: فَرِقَه على حذف من؛ قال: حين مثّل نصب قولهم: أَو فَرَقاً خيرا **من حُبّ أي** أو أفْرَقُكَ فَرَقاً؛ وفَرِقَ عليه: فزع وأَشفق؛ هذه عن اللحياني. ورجل فَرِقٌ وفَرُق وفَرُوق وفَرُوقَةٌ وفَرُّوق وفَرُّوقة وفاروق وفارُوقةٌ: فَزِعٌ شديد الفَرَق؛ الهاء في كل ذلك ليست لتأْنيث الموصوف بما هي فيه، إنما هي إِشعار بما أُريد من تأْنيث الغاية والمبالغة.

وفي المثل: رُبَّ عَجَلة تَهَبُ رَيْثاً، ورب فَرُوقة يُدْعى لَيْثاً؛ والفَرُوقة: الحُرْمة؛ وأَنشد:

ما زالَ عنه حُمْقُه ومُوقُه   واللؤْمُ، حتى انْتُهِكتْ فَروقُه

وامرأَة فَرُوقة، ولا جمع له؛ قال ابن بري: شاهد رجلٌ فَرُوقَة للكثير الفزع قول الشاعر:

بَعَثْتَ غلاماً من قريشٍ فَرُوقَة   وتَتْرُك ذا الرأْي الأَصيلِ المُهَلَّبا

قال :ويقال للمؤنث: فَرُوقٌ أَيضاً؛ شاهده قول حميد بن ثور:

رَأَتْني مُجَلِّيها فصَدَّتْ مَخافَةً   وفي الخيل رَوْعاءُ الفُؤاد فَرُوقُ

وفي حديث بدء الوحي: «فَجُئثْتُ منه فَرَقاً»؛ هو بالتحريك، الخوف والجزع؛ يقال: فَرِقَ يَفْرَقُ فَرَقاً، وفي حديث أَبي بكر: أَبالله تُفَرِّقُني؟ أَي تخوِّفني. وحكى اللحياني: فَرَقْتُ الصبيّ، إِذا رُعْتَه وأَفزعته؛ قال ابن سيده: وأَراها فَرَّقت، بتشديد الراء، لأَن مثل هذا يأْتي على فَعَّلت كثيراً، كقولك: فَزّعت ورَوَّعت وخوَّفت؛ وفارَقَني ففَرَقْتُه أَفْرُقُه أَي: كنت أَشد فَرَقاً منه؛ هذه عن اللحياني، حكاه عن الكسائي؛ وتقول: فَرِقْتُ منك، ولا تقل فَرِقْتُكَ. انتهى

وقد وصف الله تعالى المنافقين بالفرق في التنزيل الحكيم دون غيرهم، فقال سبحانه: «ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون». التوبة56

وهذا جدول يلخص ما أسلفناه:

المصطلح	اختصاصه	من اختص به
الخوف	من عذاب الله تعالى ومن غيره، على سبيل الحيطة والحذر	
الخشية	من الله وحده	
الوجل	من الله وغيره، على سبيل الحيطة والحذر	إبراهيم عليه السلام
الفزع	من أهوال الساعة	داود عليه السلام
الوجف	يكون يوم القيامة	
الهلع	من طبع ابن اَدم	
الرعب	يقذفه الله تعالى في قلوب أعداء الإسلام	الذين كفروا
الرهب	لبني إسرائيل وأنبيائهم	بنو إسرائيل
الجزع	من طبع ابن اَدم	
الإشفاق	للمومنين في الدنيا، وللكافرين في الاَخرة	
الإشفاق من الخشية	للمومنين والملائكة المخلوقات غير المكلفة: إذا أشفقت من خشيته تصدعت	
الفرق	للمنافقين	المنافقون

الفصل التاسع عشر في حزب الخوف لأبي الفتح الجعفي

وهذا دعاء كتبناه، استعملنا فيه الخوف ومرادفاته كما استعملت في التنزيل، حتى يكون مثالا للداعي، والله الموفق

حزب الخوف

اللهم يا الله، يا من لا إله إلا أنت الرحمن الرحيم، أسألك بما جمعت شركي بجلال اسم ذاتك في أحديتك، وبما خصصت من واحديتك ما أنعمت به علي من إفراد وحدتك، وألهمتني بما كشفت عن فؤادي من دياجير التوحيد، ما أتقي به أوهام المتكلمين في ألوهيتك، بما لا يليق بذاتك وصفاتك وأفعالك

وأسألك بثاني الاسمين لا ثالث بعده، النائب عن الأول متى غاب في المباني دون المعاني، برحمانية تجلت فيك منذ الأزل، كما عهدناك إياها وهي إياك لم تزل، وبأنك أنت الرحيم بما طالت رحمتك جميع خلقك، ووسعت كل شيء، كما أخذت على نفسك في كتابك العزيز

أن تصلي وتسلم على القائم بأمر الله بالله، رسولا في دنياه وشفيعا في أخراه، الحافظ آداب الاعتقاد والهادي إلى سبل الرشاد، العارف بالله كما أراد، الخائف على أمته من حر جهنم وبيس المهاد، أشد الناس خشية من مولاه، لا انسياب ولا انسداد، الواجد من حقيقته متكلفا شرع العباد، المبشر بقوله تعالى: «إن الذي فرض عليك اِلقرآن لرادك إلى معاد». القصص85

سيدنا بما أولاه المولى من تشريف على غيره من الأنبياء والمرسلين، ونبينا بما أولانا بأن أرسله رحمة للعالمين، ورسولنا بما بلغ الرسالة وأدى الأمانة وجاهد في الله خير جهاده، وحبيبنا بما أسدى من منن وسن من سنن وأبدى من صبر على المحن، وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللهم إني دعوتك من أسمائك بما يعز عليك رد سؤل داعيها، فاغفر ذنوبي واستر عيوبي، وأخلصني لنفسك في المخلصين، وزد خوفي من نارك وطمعي في جنتك، وأعذني من غضبك، واشملني برحمتك، فلا أرجو إلا خائفا، ولا أخاف إلا راجيا؛ وقني شر العالمين، وانصرني بالرعب على المعتدين الآثمين.

واجعلني من الذين يدعونك خوفا وطمعا، رغبا ورهبا، ولا تجعلني من الغافلين.

وارزقني الهيبة من جلال وجهك في قنوتي واضطراري، ولا توجلني متى ظهرت بعزك وجبروتك على ذلي وانكساري، وآمن روعاتي في ليلي ونهاري.

وأوقفني في موقف الخشية منك يا ذا الجلال والإكرام، حتى لا أخشى سواك.

واكتبني في الذين هم من خشية ربهم مشفقون، وأمني يوم الفزع الأكبر، حتى لا أنزعج ولا أضيم وأقهر، وثبتني إذا الموت حضر، وأمتني على ملة خير البشر، وأدخلني الفردوس، وقني حر سقر.

وأذهب عني الهلع والجزع، وأدخلني في رعايتك واكتبني في الآمنين، ولا تجعلني من الذين يرهبون إلا منك، واكفني كيد الذين يفرقون.

وتداركني يا رحمن يوم تكون القلوب واجفة برحمتك، واجعلها كاشفة، إنك أنت العزيز الحكيم. وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه.

انتهى الكتاب:

الرباط في: 2009م

كتاب البيت الحرام

قال أبو الفتح: قال الله تعالى: «ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب». الحج30

إخوتنا الأعزاء، هنيئا لنا ما نحن فيه وعليه، هنيئا لنا أن جعل الله بيته بين أظهرنا، وأمرنا بحجه، إنه لفضل وأي فضل، وإنها لمنة تاهت على كل المنن.

هنيئا لنا أن نشأنا في بلد المغرب، حيث الشريعة والحقيقة لا يختلفان، حيث العلم والفهم لا يفترقان، وحيث العالم والعابد سيان

كبرنا أيها الإخوة بين قوم يعظمون البيت وآل البيت، دون تشدد ولا تشيع، بين قوم يتوقون للحج وقلوبهم تهفو إليه في كل حين وآن، وما ذلك إلا بفضل علماء علموا، ووعاظ نصحوا، ومحدثين صححوا، ومفسرين أولوا، وأولياء حققوا؛ فجزاهم الله عن أمة رسول الله ﷺ خير الجزاء.

كما أنعم الله تعالى على المغرب الأقصى بملوك حفظوا حرمة الدين، وحفظوا العقيدة الأشعرية في البلاد، وسهروا على أن يكون المذهب المالكي هو مذهبنا في الفقه، ولا يخفى تميز هذا المذهب عن غيره من المذاهب عند أصحاب الشأن، بل إن مذهبنا في السلوك صوفي سني ينتسب إلى الجنيد رحمه الله تعالى.

ولا زال سلطان البلاد، جلالة الملك محمد السادس نصره الله، سائرا على ما كان عليه أسلافه الميامين، من حفظ الدين والحفاظ على وحدة المذهب، أعانه الله على نصرة الإسلام وخلد ذكره في الصالحين.

إلا أننا لمسنا بعض الغفلة في قلبنا وفي قلوب كثير من المحسنين عن إعطاء البيت حقه، وتعظيمه وإجلاله ما يستحق من تعظيم ويستدعي من إجلال.

فإن قلت: وبم يكون تعظيم البيت، ونحن بعيدون عنه أيما بعد وقد شط المزار ونأت الديار، وشق السفر؟

قلت: يكون تعظيمه بأن ندرس عنه ونتعرف على تاريخه من كتب التواريخ والسير، وبفقه أحكام العمرة والحج، فذلك تعظيمه.

ويكون إجلاله بأن يزيد حبه في القلوب حتى تتعلق به النفوس والأفئدة، أليس بيت الحبيب في قلب المحب حبيبا.

ألا يكفيكم أيها الإخوة المكرمون ما جاء في الآية التي قدمنا من أن تعظيم شعائر الله من تقوى القلوب؟

وأي شعيرة أولى بالتعظيم من شعائر الحج؟ ومداره بيت الله الحرام، نفعنا الله بحجه والتمسح بأستار كعبته.

وقد آن الأوان أيها الإخوان أن نرفع من شأن البيت الحرام كما رفعه صاحبه، ونوليه من العناية ما يرضي الله عنا ويزيد في تقوانا، والله الموفق للصواب.

ولنبدأ في إثارة همم المومنين، بسرد بعض ما يتعلق بالحرم الشريف من نماذج، من كتاب» الروض الأنف»، للإمام السهيلي رحمه الله تعالى، والله ولي التوفيق

الفصل الأول: تبع يعتنق النصرانية ويدعو قومه إليها

قال ابن إسحاق : وكان تبع وقومه أصحاب أوثان يعبدونها، فتوجه إلى مكة، وهي طريقه إلى اليمن، حتى إذا كان بين عسفان وأمج، أتاه نفر من هذيل بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد، فقالوا له: أيها الملك، ألا ندلك على بيت مال دائر أغفلته الملوك قبلك، فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة؟ قال: بلى، قالوا: بيت بمكة يعبده أهله ويصلون عنده؛ وإنما أراد الهذليون هلاكه بذلك، لما عرفوا من هلاك من أراده من الملوك وبغى عنده. فلما أجمع لما قالوا، أرسل إلى الحبرين فسألهما عن ذلك، فقالا له: ما أراد القوم إلا هلاكك وهلاك جندك، ما نعلم بيتا لله اتخذه في الأرض لنفسه غيره، ولئن فعلت ما دعوك إليه لتهلكن وليهلكن من معك جميعا، قال: فماذا تأمرانني أن أصنع إذا أنا قدمت عليه؟ قالا: تصنع عنده ما يصنع أهله، تطوف به وتعظمه وتكرمه وتحلق رأسك عنده، وتذل له حتى تخرج من عنده، قال: فما يمنعكما أنتما من ذلك؟ قالا: أما والله إنه لبيت أبينا إبراهيم وإنه لكما أخبرناك، ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التي نصبوها حوله، وبالدماء التي يهرقون عنده، وهم نجس أهل شرك، أو كما قالا له، فعرف نصحهما وصدق حديثهما، فقرب النفر من هذيل، فقطع أيديهم وأرجلهم، ثم مضى حتى قدم مكة، فطاف بالبيت ونحر عنده وحلق رأسه وأقام بمكة ستة أيام، فيما يذكرون، ينحر بها للناس ويطعم أهلها، ويسقيهم العسل، وأري في المنام أن يكسو البيت، فكساه الخصف، ثم أري أن يكسوه أحسن من ذلك، فكساه المعافر، ثم أري أن يكسوه أحسن من ذلك، فكساه الملاء والوصائل، فكان تبع، فيما يزعمون، أول من كسا البيت وأوصى به ولاته من جرهم، وأمرهم بتطهيره وألا يقربوه دما، ولا ميتة ولا مئلات، وهي المحايض، وجعل له بابا ومفتاحا، وقالت سبيعة بنت الأحب بن زبينة بن جذيمة بن عوف بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان، وكانت عند عبد مناف بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، لابن لها منه يقال له خالد تعظم عليه حرمة مكة، وتنهاه عن البغي فيها، وتذكر تبعا وتذلله له، وما صنع بها:

أبـنـي لا تـظـلـم بـم ... كة لا الصغير ولا الكبير
واحـفـظ محـارمـهـا بن ... ي ولا يغـرنـك الـغـرور
أبـنـي مـن يـظـلـم بمك ... ة يلق أطـراف الشـرور
أبـنـي يضـرب وجـهـه ... ويلح بخـديـه السـعـير
أبـنـي قـد جـربـتـهـا ... فوجدت ظالمها يـبـور
الـلـه أمـنـهـا ومـا ... بنيت بـعـرضـهـا سـور
والله أَمـن طـيـرها ... والعُصْم تـأمـن فى ثَـبـيـرْ
ولـقـد غـزاهـا تُـبَّـع ... فكسا بنيتَهـا الحـبـيرْ
وأذل ربـي مـلـكـه ... فـيـهـا فـأوفى بالـنـذور
يمشـي إلـيـهـا حـافـيـا ... بـفـنـائِـهـا ألفَا بعـير

ويظـل يـطعـم أهـلـهـا   لحـمَ الـمـهـاري والـجَـزُور
يسقيهم الـغـسـل الـمـصـف   ى والرخيص من الـشـعـيـر
والفيـلُ أهـلـك جـيـشُـه   يـرمون فـيـهـا بـالـصـخـورْ
والمُلْكُ في أقصى البـلا   د وفى الأعـاجِـم والـخَـزِيـر
فـاسمـع إذا حـدثـت واف   هـم كـيـف عـاقـبـة الأمـور

انتهى

الفصل الثاني: كسوة الكعبة

وقال ابن إسحاق في غير هذا الموضع: أول من كسا الكعبة الديباج الحجاج؛ وذكر جماعة سواه، منهم الدارقطني: فتيلة بنت جناب أم العباس بن عبد المطلب، كانت قد أضلت العباس صغيرا، فنذرت إن وجدته أن تكسو الكعبة الديباج، ففعلت ذلك حين وجدته؛ وكانت من بيت مملكة، وسيأتي ذكر نسبها فيما بعد، إن شاء الله
وقال الزبير النسابة: بل أول من كساها الديباج عبد الله بن الزبير. انتهى

الفصل الثالث: في قوله تعالى: «ان أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين».

قال أبو الفتح: قال الله تعالى: «إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدى للعالمين، فيه آيات بينات، مقام إبراهيم، ومن دخله كان آمنا، ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا، ومن كفر فإن الله غني عن العالمين».
آل عمران 96 - 97

اعلم رحمك الله تعالى، أن مما اقتضت حكمته في ملكه وملكوته، أن جعل لنفسه بيتا في السماء يطوف به ملائكته، لا يخلو من الطائفين في أي حين وآن، وهو البيت المعمور؛ ولما أهبط الله تعالى آدم ومن معه الأرض، اتخذ سبحانه فيها بيتا على مثال البيت المعمور في السماء، وسمي معمورا لأنه ما فتئ عامرا بملائكة رب العالمين منذ كان.

وأمر الباري عز وجل الناس بحجه والطواف به، وإن لم يكن حج فعمرة، ولعل الله تعالى لا يريد من عباده أن يهجروا بيته، فلا يرى فيه حاج أو معتمر أو راكع وساجد، ولو ساعة واحدة، كما هو الحال في البيت المعمور.

فكان أول بيت وضع للناس على وجه الأرض، أول من طاف به آدم عليه السلام.

وقد أنزل إبراهيم الخليل هاجر وابنه منها إسماعيل عليهما السلام عند البيت المحرم، إذ كان معروفا لديه، إلا أن قواعده لم تكن مرفوعة بعد، وكان بموضع يباب غير ذي زرع، لا ماء فيه ينزل عليه الراكب.

وكان سبب إنزال هاجر وابنها إسماعيل بمكة ونقلها إلى الشام، أن سارة بنت عم إبراهيم عليه السلام، شجر بينها وبين هاجر أمر وساء بينهما، فأمر إبراهيم أن يسير بها وبابنها إلى مكة.

وبذلك يكون الله تعالى قد امتحن خليله عليه السلام، ما ينوء به أولوا العزم من المومنين الأخيار، وتظهر لنا مشقة هذا الامتحان العسير من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن إبراهيم لم يرزق الولد إلا لما اشتعل رأسه شيبا، فابتلي في إسماعيل، وهو ولده الأوحد الذي لا يعلم إلا الله تعالى هل يعمر بعدها وهو كبير السن حتى يرزق غيره

الوجه الثاني: أن الموضع الذي أمره الله تعالى أن يحمل إليه زوجه وابنه لا يعمره عامر، ولا ينبت به زرع، ولا يطير به طائر، فما صبر هاجر في صحراء يابسة؟ وما عيش الصبي الفتي على رمل ساخن تحت شمس حارقة، وأمه مرضع لا زال في حاجة إلى لبنها، ومن أين لها باللبن، ولا ماء تشربه، ولا قوت تشد به أودها؟

الوجه الثالث: أن الله تعالى أمر خليله بألا يبقى مع زوجه وابنه، حتى يعينهما على تحمل هجير الصحراء وضنك العيش فيها

فكان امتحانا عسيرا لإبراهيم عليه السلام؛ واحتمل معه قربة ماء ومزود تمر، وسار بهما حتى أنزلهما بمكة في موضع البيت، ثم ولى راجعا عوده على بدئه، وتبعته هاجر وهي تقول: الله أمرك أن تدعني وهذا الصبي في هذا البلد الموحش وليس معنا أنيس؟ فقال: نعم، فقالت: إذا لا يضيعنا. فجعلت تأكل من التمر وتشرب من ماء القربة حتى نفد الماء وعطش الصبي، وجعل ينشغ للموت، وجعلت هي تسعى من الصفا إلى المروة، ومن المروة إلى الصفا لترى أحدا، حتى سمعت صوتا عند الصبي، فقالت: قد سمعت إن كان عندك غوث، ثم جاءت الصبي، فإذا الماء ينبع من تحت خده، فجعلت تغرف بيديها، وتجعل في القربة. قال النبي ﷺ: «لو تركته لكانت عينا»، أو قال: « نهرا معينا «، وكلمها الملك، وهو جبريل عليه السلام، وأخبرها أنها مقر ابنها وولده إلى يوم القيامة، وأنها موضع بيت الله الحرام، ثم ماتت هاجر، وإسماعيل عليه السلام ابن عشرين سنة، وقبرها في الحجر وثم قبر إسماعيل عليه السلام، وكان الحجر قبل بناء البيت زربا لغنم إسماعيل ﷺ، ويقال إن أول بلد مرت منه أم إسماعيل عليه السلام وابنها التمر، القرية التي كانت تعرف بالفرع من ناحية المدينة، والله أعلم.

الفصل الرابع: في ذكر بلاء إبراهيم عليه السلام

قلت: كتب الله على نفسه، كما تقتضيه رحمته التي وسعت كل شيء، أن يبشر عباده الصالحين قبل أن يبتليهم، بالنجاة من بلائه، حتى يخفف عنهم ما ابتلاهم به ويهدئ من روعهم قبل البلاء.
ومنهم نبي الله يوسف عليه السلام: فرغم ما أجرى عليه الباري عز وجل من مقادير، فقد سبقت له البشرى حين

حكى رؤياه لأبيه فقال له ضمن ما قال: «وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تاويل الأحاديث، ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحاق، إن ربك عليم خبير». يوسف06
وبشره حين هم إخوته أن يجعلوه في غيابات البئر، «فلما ذهبوا به وأجمعوا أن يجعلوه في غيابات الجب وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون». يوسف15
ومنهم مريم عليها السلام: قال تعالى: «إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه، اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين، ويكلم الناس في المهد وكهلا، ومن الصالحين». آل عمران 45 -46
وبذلك كانت تعرف أن ابنها سيعيش حتى يصبح كهلا، ويكون من المقربين.
ومنهم أم موسى عليهما السلام: أعلمها الباري جل وعلا أنه سيرجع لها ابنها، وسيجعله من المرسلين قبل أن تلقيه في اليم: «ولا تخافي ولا تحزني، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين». القصص06
ومنهم نبي الله لوط عليه السلام: فقد أمنه الله من العذاب الذي سيصيب قومه قبل نزوله، قال تعالى: «ولما أن جاءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا، وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين». العنكبوت33
أما إبراهيم خليل الله عليه السلام، فحين حمل ابنه إلى الصحراء، كان يعرف أن الله تعالى سيفي بوعده في جعل إسماعيل عليه السلام حليما عليما، وإذا كان الأمر كذلك، فلن يصاب الصبي بمكروه، لأن إسماعيل وهو صبي لا يظهر عليه سيمى الحلم وأمارات العلم، إلا إذا كبر، ولذلك فلا بد أن يعيش حتى يكبر
قال تعالى: «قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم». الذاريات28
وقال تعالى: «قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم». الحجر53
ولا ننسى أن الله تعالى بعد ذلك، سيأمره بذبحه، وسيمتثل لأمر مولاه، رغم أنه في هذه المرة، سيكون أشد وجلا، لأن إسماعيل، رغم صغره، فقد يكون الله تعالى أنجز وعده فيه، وأظهر عليه نعمة الحلم والعلم كما وعد.
فما أشد صبر إبراهيم عليه السلام، وهو الذي ابتلي في ابنه الوحيد، وما أشد تسليم هاجر، وهي أم وامرأة أضعف ركنا، وما أشد رضا إسماعيل وإذعانه للذبح وهو الطفل الصغير
«رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت، إنه حميد مجيد». هود72

الفصل الخامس: في حديث زمزم

وكانت زمزم، كما تقدم، سقيا إسماعيل عليه السلام، فجرها له روح القدس بعقبه، وفي تفجيره إياها بالعقب دون أن يفجرها باليد أو غيره، إشارة إلى أنها لعقبه وراثة، وهو محمد ﷺ وأمته، كما قال سبحانه: "وجعلها كلمة باقية في عقبه". الزخرف28، أي في أمة محمد عليه السلام.
ثم إن زمزم لما أحدثت جرهم في الحرم، واستخفوا بالمناسك والحرم، وبغى بعضهم على بعض واجترم، تغور ماء زمزم واكتتم؛ فلما أخرج الله جرهما من مكة بالأسباب التي تقدم ذكرها، عمد الحارث بن مضاض الأصغر، إلى ما كان عنده من مال الكعبة، وفيه غزالان من ذهب وأسياف قلعية، كان ساسان ملك الفرس قد أهداها إلى الكعبة، وقيل سابور.

وقد قدمنا أن الأوائل من ملوك الفرس كانت تحجها إلى عهد ساسان أو سابور، فلما علم ابن مضاض أنه مخرج منها، جاء تحت جنح الليل حتى دفن ذلك في زمزم، وعفى عليها، ولم تزل دارسة عافيا أثرها، حتى آن مولد المبارك الذي كان يستسقى بوجهه غيث السماء، وتتفجر من بنانه ينابيع الماء، صاحب الكوثر والحوض الرواء، فلما آن ظهوره، أذن الله تعالى لسقيا أبيه أن تظهر، ولما اندفن من مائها أن تجتهر. انتهى من الروض الأنف

ذكر حفر زمزم وما جرى من الخلف فيها:

ثم إن عبد المطلب، بينما هو نائم في الحجر إذ أتي فأمر بحفر زمزم.

قال ابن إسحاق: وكان أول ما ابتدئ به عبد المطلب من حفرها، كما حدثني يزيد بن أبي حبيب المصري عن مرثد بن عبد الله اليزني عن عبد الله بن زرير الغافقي: أنه سمع علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه يحدث حديث زمزم، حين أمر عبد المطلب بحفرها، قال: قال عبد المطلب: إني لنائم في الحجر إذ أتاني آت فقال: احفر طيبة.

قال: قلت: وما طيبة؟ قال: ثم ذهب عني؛ فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه، فجاءني فقال: احفر برة.

قال: فقل ت: وما برة؟ قال: ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي، فنمت فيه، فجاءني فقال: احفر المضنونة.

قال: قلت: وما المضنونة؟ قال: ثم ذهب عني؛ فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي، فنمت فيه فجاءني، فقال: احفر زمزم.

قال: قلت: وما زمزم؟ قال: لا تنزف أبدا ولا تذم، تسقي الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الأعصم، عند قرية النمل. انتهى

قال ابن إسحاق:

فلما بين له شأنها، ودل على موضعها، وعرف أنه قد صدق، غدا بمعوله ومعه ابنه الحارث بن عبد المطلب، ليس له يومئذ ولد غيره، فحفر فيها.

فلما بدا لعبد المطلب الطي، كبر فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته، فقاموا إليه فقالوا: يا عبد المطلب، إنها بئر أبينا إسماعيل، وإن لنا فيها حقا، فأشركنا معك فيها.

قال: ما أنا بفاعل، إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم وأعطيته من بينكم، فقالوا له: فأنصفنا، فإنا غير تاركيك حتى نخاصمك فيها، قال: فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه، قالوا: كاهنة بني سعد هذيم، قال: نعم، قال: وكانت بأشراف الشام.

فركب عبد المطلب ومعه نفر من بني أبيه من بني عبد مناف، وركب من كل قبيلة من قريش نفر.

قال: والأرض إذ ذاك مفاوز؛ قال: فخرجوا، حتى إذا كانوا ببعض تلك المفاوز بين الحجاز والشام، فني ماء عبد المطلب وأصحابه، فظمئوا حتى أيقنوا بالهلكة، فاستسقوا من معهم من قبائل قريش، فأبوا عليهم وقالوا: إنا بمفازة ونحن نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم، فلما رأى عبد المطلب ما صنع القوم وما يتخوف على نفسه وأصحابه، قال: ماذا ترون؟ قالوا: ما رأينا إلا تبع لرأيك، فمرنا بما شئت، قال: فإني أرى أن يحفر كل رجل منكم حفرته لنفسه بما بكم الآن من القوة، فكلما مات رجل دفعه أصحابه في حفرته ثم واروه، حتى يكون آخركم رجلا واحدا، فضيعة رجل واحد أيسر من ضيعة ركب جميعا، قالوا: نعم ما أمرت به.

فقام كل واحد منهم فحفر حفرته، ثم قعدوا ينتظرون الموت عطشا، ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه: والله إن إلقاءنا

بأيدينا هكذا للموت لا نضرب في الأرض ولا نبتغي لأنفسنا لعجز، فعسى الله أن يرزقنا ماء ببعض البلاد، ارتحلوا، فارتحلوا حتى إذا فرغوا، ومن معهم من قبائل قريش ينظرون إليهم ما هم فاعلون، تقدم عبد المطلب إلى راحلته فركبها. فلما انبعثت به انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب فكبر عبد المطلب، وكبر أصحابه، ثم نزل فشرب وشرب أصحابه واستقوا حتى ملؤوا أسقيتهم، ثم دعا القبائل من قريش، فقال: هلم إلى الماء، فقد سقانا الله، فاشربوا واستقوا، فجاءوا، فشربوا واستقوا؛ ثم قالوا: قد والله قضي لك علينا يا عبد المطلب، والله لا نخاصمك في زمزم أبدا، إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة، لهو الذي سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشدا.

فرجع ورجعوا معه، ولم يصلوا إلى الكاهنة، وخلوا بينه وبينها. انتهى

قال ابن إسحاق: فزعموا أنه حين قيل له ذلك قال: وأين هي؟ قيل له: عند قرية النمل، حيث ينقر الغراب غدا، والله أعلم أي ذلك كان.

فغدا عبد المطلب، ومعه ابنه الحارث، وليس له يومئذ ولد غيره، فوجد قرية النمل، ووجد الغراب ينقر عندها، بين الوثنين: إساف ونائلة، اللذين كانت قريش تنحر عندهما ذبائحها؛ فجاء بالمعول وقام ليحفر حيث أمر، فقامت إليه قريش حين رأوا جده فقالوا: والله لا نتركك تحفر بين وثنينا هذين اللذين ننحر عندهما، فقال عبد المطلب لابنه الحارث: ذد عني حتى أحفر، فوالله لأمضين لما أمرت به؛ فلما عرفوا أنه نازع، خلوا بينه وبين الحفر، وكفوا عنه فلم يحفر إلا يسيرا حتى بدا له الطي، فكبر وعرف أنه قد صدق، فلما تمادى به الحفر وجد فيها غزالين من ذهب، وهما الغزالان اللذان دفنت جرهم فيها حين خرجت من مكة، ووجد فيها أسيافا قلعية وأدراعا، فقالت له قريش: يا عبد المطلب، لنا معك في هذا شرك وحق، قال: لا، ولكن هلم إلى أمر نصف بيني وبينكم، نضرب عليها بالقداح، قالوا: وكيف تصنع؟ قال: أجعل للكعبة قدحين، ولي قدحين، ولكم قدحين، فمن خرج له قدحاه على شيء كان له، ومن تخلف قدحاه فلا شيء له، قالوا: أنصفت، فجعل قدحين أصفرين للكعبة، وقدحين أسودين لعبد المطلب، وقدحين أبيضين لقريش، ثم أعطوا صاحب القداح الذي يضرب بها عند هبل، وهبل صنم في جوف الكعبة، وهو أعظم أصنامهم، وهو الذي يعني أبو سفيان بن حرب يوم أحد حين قال: أعل هبل، أي أظهر دينك، وقام عبد المطلب يدعو الله عز وجل، فضرب صاحب القداح، فخرج الأصفران على الغزالين للكعبة، وخرج الأسودان على الأسياف والأدراع لعبد المطلب، وتخلف قدحا قريش.

فضرب عبد المطلب الأسياف بابا للكعبة، وضرب في الباب الغزالين من ذهب، فكان أول ذهب حليته الكعبة، فيما يزعمون، ثم إن عبد المطلب أقام سقاية زمزم للحجاج. انتهى من الروض الأنف

الفصل السادس: في ذكر أبرهة والفيل والكعبة

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة، وهيأ فيله وعبى جيشه، وكان اسم الفيل محمودا، وأبرهة مجمع لهدم البيت ثم الانصراف إلى اليمن؛ فلما وجهوا الفيل إلى مكة، أقبل نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنب، ثم أخذ بأذنه فقال: أبرك محمود، أو ارجع راشدا من حيث جئت، فإنك في بلد الله الحرام، ثم أرسل أذنه؛ فبرك الفيل، وخرج نفيل بن حبيب

يشتد حتى أصعد في الجبل، وضربوا الفيل ليقوم فأبى، فضربوا في رأسه بالطبرزين ليقوم فأبى، فأدخلوا محاجن لهم في مراقه فبزغوه بها ليقوم فأبى، فوجهوه راجعا إلى اليمن فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى المشرق ففعل مثل ذلك، ووجهوه إلى مكة فبرك، فأرسل الله تعالى عليهم طيرا من البحر أمثال الخطاطيف والبلسان، مع كل طائر معها ثلاثة أحجار يحملها: حجر في منقاره وحجران في رجليه أمثال الحمص والعدس، لا تصيب منهم أحدا إلا هلك، وليس كلهم أصابت، وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق الذي منه جاءوا، ويسألون عن نفيل بن حبيب ليدلهم على الطريق إلى اليمن، فقال نفيل حين رأى ما أنزل الله بهم من نقمته:

أيـن المفـر والإلـه الطالب الغالب ليس المغلوب والأشرم

انتهى

فخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلكون بكل مهلك على كل منهل، وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم يسقط أنملة أنملة، كلما سقطت أنملة أتبعتها منه مدة تمث قيحا ودما، حتى قدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر، فما مات حتى انصدع صدره عن قلبه فيما يزعمون.

قال ابن إسحاق: حدثني يعقوب بن عتبة، أنه حدث أن أول ما رئيت الحصبة والجدري بأرض العرب ذلك العام، وأنه أول ما رئي بها مرائر الشجر: الحرمل والحنظل والعشر ذلك العام. انتهى

مصير الفيل وسائسه:

قال ابن إسحاق: حدثني عبد الله بن أبي بكر، عن عمرة ابنة عبد الرحمن بن سعد بن زرارة عن عائشة رضي الله عنها قالت: "لقد رأيت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان الناس".

انتهى من الروض الأنف

ما قيل في صفة الفيل من الشعر:

قال ابن إسحاق: فلما رد الله الحبشة عن مكة، وأصابهم بما أصابهم به من النقمة، أعظمت العرب قريشا، وقالوا: هم أهل الله، قاتل الله عنهم وكفاهم مؤونة عدوهم، فقالوا في ذلك أشعارا يذكرون فيها ما صنع الله بالحبشة، وما رد عن قريش من كيدهم؛ فقال عبد الله بن الزبعرى بن عدي بن قيس بن عدي بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هصيص بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر:

تنكلوا عن بطن مكة إنها كانت قديما لا يرام حريمها
لم تخلق الشعرى ليالي حرمت إذ لا عزيز من الأنام يرومها
سائل أمير الجيش عنها ما رأى ولسوف ينبي الجاهلين عليمها
ستون ألفا لم يئوبوا أرضه ولم يعش بعد الإياب سقيمها
كانت بها عاد وجرهم قبلهم والله من فوق العباد يقيمها

انتهى

الفصل السابع: في دعاء الزيارة لأبي الفتح الجعفي

سورة الفاتحة مرة واحدة، سورة الكافرون مرة واحدة، سورة الإخلاص ثلاث مرات

«وإذا سألك عبادي عني فإني قريب، أجيب دعوة الداع إذا دعان، فليستجيبوا لي وليومنوا بي لعلهم يرشدون». البقرة185

«إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم، فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين». الأعراف194

«إن وليي الله الذي نزل الكتاب، وهو يتولى الصالحين». الأعراف196

«ولا تدع مع الله إله آخر، لا إله إلا هو، كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون». القصص88

الصلاة الإبراهيمية مرة واحدة

اللهم يا واحد يا أحد يا فرد يا صمد

أشهدك أنني وقفت على هذا القبر ترحما على صاحبه وإكراما لابتغائه مرضاتك

لا أقدم مزاره على بيتك المحرم، ولا على قبر رسولك ﷺ، ولا أتخذه مسجدا بعد المساجد الثلاث التي لا تشد الرحال إلا إليها.

برئت من أن أدعو من دونك أحدا ولا معك، ومن أن أشرك بك سواك، إن هو إلا عبد مثلي، بل أشهد أن لا إله إلا أنت العلي العظيم

«سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق، إن كنت قلته فقد علمته، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك، إنك أنت علام الغيوب». المائدة118

اللهم إن كان صاحب هذا القبر وليا، فوالني كما واليته، واجعل كتابه في عليين، واكتبه مع النبيئين والصديقين والشهداء والصالحين

وإن كان غير ذلك، فاغفر له بما ظن الناس به خيرا، وبدل سيئاته حسنات، واعف عمن جاءه عن جهل بشرك أو ببدعة، واهد من تعمد الخروج في زيارته عن هدي سيد المرسلين

اللهم لا تفتنا بعده ولا تحرمنا أجره واغفر لنا وله، واجعل خير أعمالنا خواتمها وخير أيامنا يوم لقائك

وارزقني اللهم حج بيتك الحرام، ولا تحرمني زيارة قبر سيدنا محمد صلى الله عليه واله وصحبه وسلم

سبحان ربك رب العزة عما يصفون

وسلام على المرسلين

والحمد لله رب العالمين

انتهى الكتاب

الرباط في: 2009م

فهرس مراجع كتاب الخوف

01- القرآن الكريم برواية الإمام ورش دا المصحف بيروت	
02- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم	وضعه: محمد فؤاد عبد الباقي دار الجيل بيروت 1408هجرية-1988ميلادية
03- لسان العرب	ابن منظور
04- كتاب ختم الأولياء تحقيق: عثمان إسماعيل يحيى	الشيخ أبو عبد الله محمد بن علي بن الحسن الحكيم الترمذي المطبعة الكاثوليكية بيروت
05- الفوائد في اختصار المقاصد أو القواعد الصغرى تحقيق: إياد خالد الطباع	سلطان العلماء العز بن عبد السلام عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي، توفي: 660 هجرية دار الفكر المعاصر بيروت لبنان دار الفكر دمشق سورية 1996 ميلادية
06- تفسير القرآن العظيم	الحافظ عماد الدين ابو الفداء اسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي توفي 774هجرية دار إحياء التراث العربي بيروت 1388 هجرية-1969 ميلادية
07- زاد المعاد في هدي خير العباد حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط وعبد القادر الأرنؤوط	ابن قيم الجوزية الإمام المحدث المفسر الفقيه شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي 691 -751هجرية مؤسسة الرسالة مكتبة المنار الإسلامية بيروت 1401هجرية-1986 الطبعة الثالثة عشر
08- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز تحقيق: المجلس العلمي بفاس	القاضي أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي 481 -546هجرية مطابع فضالة المحمدية المغرب 1407 هجرية-1987 ميلادية
09- اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان	محمد فؤاد عبد الباقي دار الفكر بيروت
10- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه	للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري

11- المسند الصحيح المختصر من السنن بنقل العدل عن العدل عن رسول الله ﷺ	للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري
12- المستدرك على الصحيحين	محمد بن عبد الله أبو عبد الله الحاكم النيسابوري
13- صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان	أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد التميمي البستي
14- سنن النسائي (المجتبى)	أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي
15- الجامع الصحيح	أبو عيسى محمد بن عيسى بن سورة الترمذي
16- الروض الأنف	للإمام السهيلي
17 - السيرة النبوية	لأبي محمد محمد عبد الملك بن هشام راجع أصولها وعلق على حواشيها نخبة من العلماء دار الفكر القاهرة 1980ميلادية
18 - الرسالة القشيرية في علم التصوف تحقيق وإعداد: معروف زريق وعلي عبد الحميد بلطجي	العلامة العارف بالله أبي القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيري النيسابوري دار الجيل بيروت طبعة ثانية 1410هجرية 1990ميلادية
19 - إحياء علوم الدين وبذيله: المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تحريج ما في الإحياء من الأخبار	الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي توفي 505 هجرية للعلامة زين الدين أبي الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي توفي 806هجرية دار الكتب العلمية بيروت 1417هجرية 1996ميلادية
20 - لطائف المنن في مناقب علم المهتدين وقدوة السالكين سيدي أبي العباس أحمد بن عمر الأنصاري المرسي وشيخه قطب الأقطاب ودستور عوارف المعارف بلا ارتياب سيدي أبي الحسن الشاذلي تحقيق عبد الحليم محمود	الشيخ الإمام تاج الدين أبي الفضل أحمد ابن الشيخ الهمام فخر الدين أبي بكر محمد ابن الشيخ الإمام العلامة رشيد الدين ابي محمد عبد الكريم ابن عطاء الله السكندري مجلة كتاب الشعب 1406هجرية 1986ميلادية
21 - ديوان أطلال	الجعفي أبو الفتح مطبعة العاصمة، الرباط

فهرس الموضوعات